عادل عصمت

مخاوف نهاية العمر

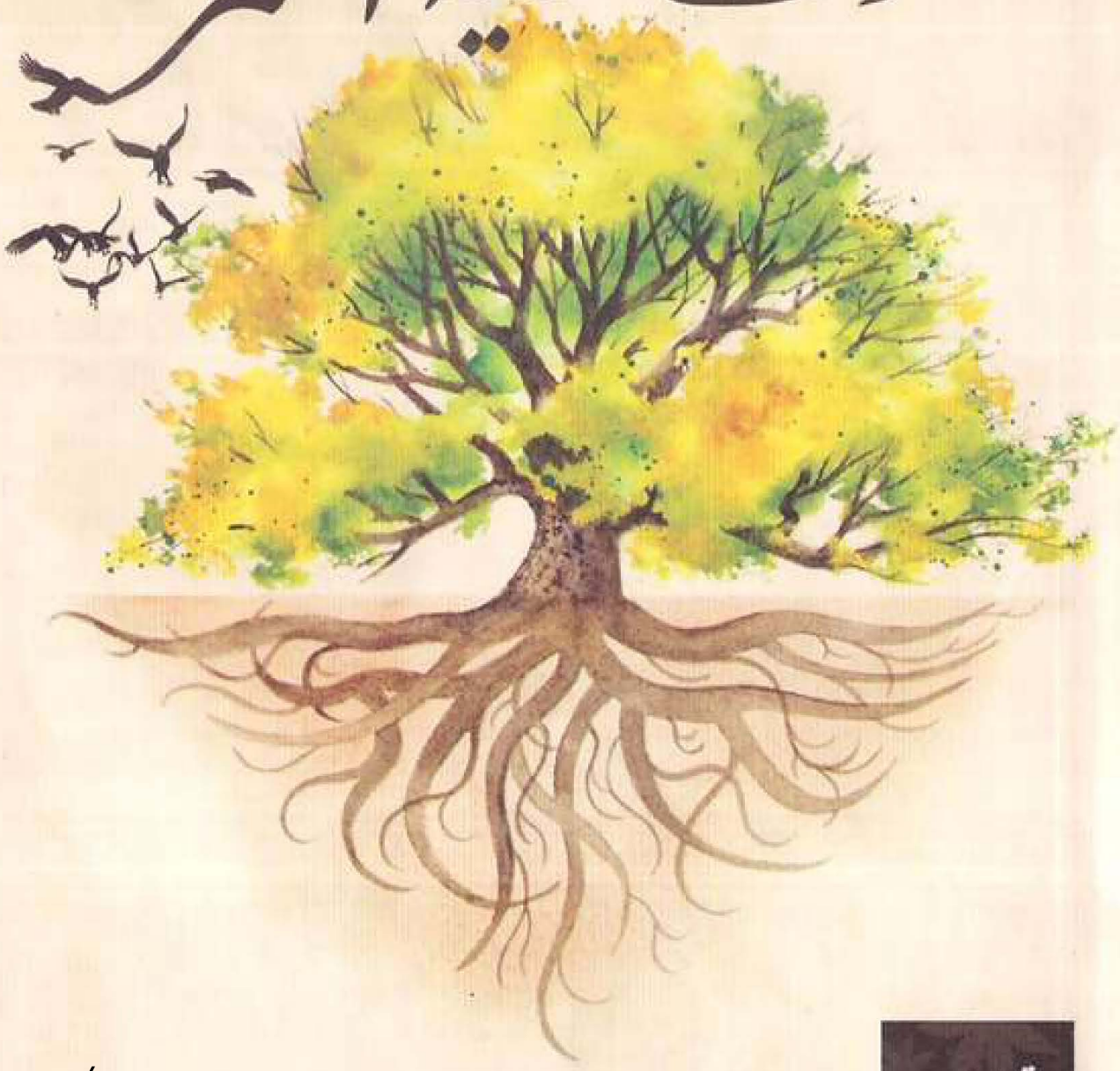

قصص

t.me/qurssan

مخاوف نهاية العمر
قصص
الطبعة الأولى: ٢٠٢٠
رقم الإيداع: 2020/16046
الترقيم الدولي: 978-977-803-126-3
الغلاف: حاتم سليمان
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+
بريد إلكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إلكتروني: www.kotobkhan.com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطّي من الناشر.

Arabic Language Copyrights ® 2020 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution. The Moral Rights of the author have been asserted. All rights reserved.

t.me/qurssan

عادل عصمت

مخاوف نهاية العمر

قصص

t.me/qurssan

فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
عصمت، عادل
مخاوف نهاية العمر : قصص/ تأليف: عادل عصمت ـ ط١. ـ القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠
١٦٦ ص، ٢٠ سم
تدمك: 3-126- 803- 977 - 978
١ - قصص
أ- العنوان
رقم الإيداع: 16046
الطبعة الأولى ٢٠٢٠

t.me/qurssan

قصة الفجـر

t.me/qurssan

t.me/qurssan

سأل عم "نسيم جرجس" رفاقه في الزنزانة:

"ما هي أصعب لحظة في السجن؟"

قال واحد:

"أول يوم".

قال آخر:

"بعد الزيارة"

قال آخر:

"حفلات التعذيب"

قال آخر:

"جلسات التحقيق"

صمتوا جميعا، وتطلعوا إليه منتظرين.

قال عم نسيم:

"الفجر"

حكى عم "نسيم" لي هذه الحكاية عشرات المرات. كان يجلس على حجر بجانب بائعة الجرائد على ناصية شارع بطرس. يقرأ الجرائد ويتحدث مع الناس. لم يعد يذهب، في الفترة الأخيرة، إلى مكتب

t.me/qurssan

المحاماة. يتابع من بعيد المحامين الشباب يديرون المكتب، لكنه ينتفض عندما يعرف أن عاملاً فُصل من عمله، أو تعرض لظلم. يرتدي حلته الكاملة ويشذب شاربه الكث، ويحلق ذقنه، ويتوجه إلى المحكمة بنفسه.

ظننت أنه يختلق مناسبة لكي يحكي لي "قصة الفجر"، وخيل إلي أنه ينظر إلى هذه القصة على أنها جوهر حياته. كان يعتبر الفترة التي قضاها في السجن من عام ١٩٥٩ إلى ١٩٦٤ أفضل سنوات عمره. كيف شكلوا في السجن "جامعة". كان معهم أهم مفكري البلد. أساتذة في الاقتصاد والعلوم والآداب. ويتوقف طويلاً عند غناء "محمد حمام". يصفه كأنه خيط نور بعد إحدى جلسات التعذيب. كانوا عرايا بالكامل في برد ليلة صحراوية، يطاردهم الجلادون بالخيول والكرابيج في حوش سجن الواحات. يومها في الفجر، طلع صوت "محمد حمام"، بأغنية لا يمكن نسيانها:

يا خُضرة منبّتة
جوه شقوق الروح
يا أمه
أمايا يا أمه
ياتوبي
ولحمي
وستري
وغطايا

t.me/qurssan

يا أمه

أمايا

يومها عرف أن الغناء هبةٌ سماويةٌ، يمكن أن تمسد الجراح فتصبح محتملة.

حكايات كثيرة سمعتها من عم نسيم، وهو يسير معي قليلاً في شارع بطرس المشمس في الصباح باتجاه الإدارة التعليمية، أو أثناء عودتي من العمل باتجاه شارع سعيد. أو عندما توطدت علاقتي به وأصر أن أصحبه لأتناول فنجان قهوة في بيته.

كانت شقته بسيطة بها مكتبة وحسٌ بالدفء ورائحة البن تسيل في الجو. تعرفت على زوجته، وقدمني لها باعتباري ابن خالة "محمود الدمرداش" أحد أبطال الحركة الطلابية في السبعينيات. ارتحت لجو البيت وحسه المغاير لبيوتنا والود الطيب الذي يغمر أجوائه.

كانت حكايات عم نسيم طيبة، لكنه كان يحكيها لي كأني عضو في أحد التنظيمات اليسارية، وكنت أريد أن أقول له إنني لم أهتم أبدًا بتلك الأمور وإنني مجرد موظف. كل ما في الأمر أن ابن خالتي سجن معه عام ١٩٧٧، ولا تجعل مني هذه القرابة واحدًا من أعضاء التنظيم. لقد ظل قلقي من النبرة التي يحدثني بها عم نسيم خفيًا حتى كان ذلك اليوم الذي كنت عائدًا فيه من العمل، مرهقًا من المتاهة الإدارية التي دخلت فيها بسبب ضياع أحد الملفات، وغاضبًا من التحقيق معي في النيابة الإدارية، ومتعبًا من منظر وكيل النيابة السمين، التي خلت عيناه من

t.me/qurssan

أي فهم. يومها أوقفني عم نسيم. كان حليق الذقن ومتهللاً وحكى لي الحكاية. لقد استدعوه إلى أمن الدولة مرة أخرى. ذلك الاستدعاء الدوري كما قال. حدثني بلهجة انتصار بأنه أخبر الضابط بأن عليهم أن يغيروا الكشوف التي يتم بناء عليها استدعاء الناس. لابد أن هناك أجيالاً أخرى. "أما نحن فقد راحت علينا، يدوب نحمل حكايات ونجلس بها على النواصي".

أخبرني بأنه عاد متعبًا من ركود الأوضاع وكاد أن يدخل في دور اكتئاب، لولا الست زهيرة، زوجته التي تقود حياته كما يقول. أجبرته على أن يأخذ حمامًا، ويحلق ذقنه، وعندما كان يمشط شاربه أمام المرآة، وجد نفسه وقد عاد ثلاثين عامًا إلى الوراء، فيه عافية، ويمكنه أن يعيد سيرة حياته مرة أخرى، ويقوم بأول عمل تحريضي له، مثلما حدث في نهاية الأربعينيات، عندما ذهب إلى الجامع الأحمدي، وصلى الجمعة مع الناس، ومن الشرفة العلوية للجامع بعد الصلاة، نثر المنشورات على رؤوس المصلين. تلهي الناس في الأوراق الهابطة من السماء، تعوم في فضاء الجامع المشع بالشمس، وتوارى هو وسط الخارجين.

سمعت حكاياته في ذلك اليوم بقلق. لو أنه صمت واكتفى بحكاية تعلمه صلاة المسلمين لكي يصلي الجمعة معهم في الجامع، لمر اللقاء ببساطة. لكنه استعاد السجن، وقصة الفجر. وقال مرة أخرى إنها كانت أفضل سنوات حياته. عندها وجدت نفسي أسأل، بطريقة لم أعتدها في الحديث معه:

t.me/qurssan

"كيف يكون السجن أفضل سنوات العمر؟"

نظر إلي بوجهه النحيل وشعره الأبيض، ومسد بخفة على شاربه، وأدرك أنني لم أفهم الأمر برمته، ولاحت في عينيه نظرة يقظة، كأنه يراني لأول مرة. كان الصمت قلقًا ومفتوحًا كأنه ورطة لكلينا. أخيرًا اضطر "عم نسيم" إلى الكلام، فقال: "لقد كانت فعلاً أفضل سنوات العمر." لكنه لاحظ أنني أسأل بجدية وبشيء من التحفز، فقال إنها السنوات التي تشعر بأنك تفعل شيئًا، وأن لحياتك معنى. ما معنى أن تعيش وتموت، مثل أي شيء؟

قلت بعصبية: "إنها سنة الحياة، ولماذ يختلف المرء عن كائنات أخرى؟" ثم أكملت بحماقة: "أنا لا أختلف عن أي كائن على ظهر الأرض، أنا مثل الشجرة والحشرة والحمار". اندهش عم نسيم من عصبيتي، وقال متسائلاً:

"لا تشعر بأي فرق بينك وبين الحمار؟"

قلت:

"لا أشعر بأي فرق، بل أحسد الكائنات الأخرى، لأنها لاتشعر بالقلق."

ثم قلت بيقين عبيط: "الحمار أحسن حالاً مني."

كنت أتكلم جادًا مُنغصًا من تلك المتاهة من الحياة الإدارية والمشاكل التي تسلبني حياتي. يومها تركني عم نسيم على الناصية وقال:

t.me/qurssan

"سلم لي على ابن خالتك."

قلت له، ربما، إمعانًا في التعذيب:

"ابن خالتي يعيش في مطروح، وقد أصبح من أثرياء الساحل الشمالي، لم يزرنا منذ عشر سنوات."

بعد ذلك لم يعد عم نسيم يحكي لي الحكاية. عندما أصادفه جالسًا على الحجر أمام بائعة الجرائد، يتحدث معي عن الأحوال، بطريقته البشوشة، لكنها أصبحت خالية من الود. بعد تلك المناقشة، لم أسمع حكاياته مرة أخرى، وندمت على حماقتي. ورغم ذلك كان لابد أن أوقف هذا الوهم المقلق، الذي كان يطاردني خلف نبرته الودودة أثناء سرده لحكاياته، كأنه يخصني وحدي بتلك الثروة، كأنني أحد رفاقه في التنظيمات اليسارية. ثم أنني لم أفهم أبدًا مغزى قصة الفجر. ماذا يعني الفجر في تلك الحكاية؟ لو سألني أي لحظات السجن أصعب، سوف أقول: جلسات التحقيق. فكم هو مهين أن يجلس المرء أمام إنسان مثله، ولمجرد أنه عُين بوساطة والده في النيابة، يستدعيني إلى مكتب، يقف حارسُ عند بابه، ويعلق الجاكيت على ظهر الكرسي، وتصبح له سلطة استجوابي، ومعاملتي على أنني أدنى منه، وتفحص كلماتي متشككا في صدقي ومفترضا بشكل ما أنني مجرم. من أعطاه الحق، وهو إنسان مثلي، أن يعاملني بسطوة من يمكنه في أي لحظة أن يسلبني حياتي ويضعني بجرة قلم في السجن؟

بعد ذلك أصبحت مرات جلوس عم نسيم أمام بائعة الجرائد

t.me/qurssan

قليلة. سألت عنه "أم السيد" فقالت إنه مريض. "الست زهيرة هي التي تجيء لتأخذ الجرائد." واعتبرتني أحد أقاربه فقالت:

"طمنا عليه".

شجعني كلام "أم السيد" أن أفكر في زيارته. في مساء اليوم التالي ذهبت إلى بيته. استقبلني باسمًا، كأنه نسي أمر المناقشة العاصفة التي كشفتني أمامه. جاءت زوجته وجلست معنا قليلاً، ثم قامت لتعد لنا القهوة. تبادلنا الأخبار، وتحدثنا عن أحوال البلاد، لكنه لم يأتِ على ذكر حكاية الفجر، ولم يسأل عن ابن خالتي، وحكى لي بعضًا من طرائف الحياة بينه بين زوجته.

كان الطبيب قد منعه من التدخين لأن الرئة تهالكت. امتنع عدة أسابيع عن التدخين لكنه تَعب. بدأ يطلب من حفيده سيجارة ومن زوج ابنته واحدة أخرى، وأخرى، ويخفيها في علبة فارغة يدسها بين أكوام الجرائد والمجلات. عندما تنزل الست "زهيرة" إلى السوق، يُخرج العلبة بفرحٍ ويدخن. لكن الحزن قد بدأ عندما لاحظ أنه ينتظر نزولها إلى السوق، وأصبح وجودها عبئًا عليه، لايمكن أن يَدع رغبته في التدخين تقضي على حبه لوجود "زهيرة". وقع في حيرةٍ شديدةٍ، خاصةً أنه يريد أن يدخن، بنفس القوة التي يريد بها ألّا يُفرط في وجود زوجته. وأخيرًا وجد الحل. ذات يوم نَزلتْ إلى السوق. أخرج علبة السجائر ووضعها أمامه وانتظر حتى عادت. عندما أعَدتْ القهوة، وجاءت لتجلس معه في غرفة المكتبة، فتح العلبة وأخرج السيجارة. رفعت وجهها إليه

t.me/qurssan

وقالت:

"أعرف أنك تدخن من ورائي. سيجارة واحدة في اليوم. اتفقنا؟"

كان يحكي الحكاية بسرعة وتوتر حتى ينتهي منها قبلما تعود الست زهيرة من المطبخ. عندما جاءت ابتسم لي بفرح. جلست في المقعد المجاور له بشعرها المقصوص الفضي وفستانها المنزلي القصير، تُنصت إليه وقد راح يتحدث بحماسته المعتادة، عن أحوال البلاد، وكيف أن الأوضاع أصبحت لا تُحتمل وأن الظلمات أصبحت كثيفة ومادامت قد أصبحت كثيفة فإن الفجر لابد قادم. كانت تحدق في فنجان القهوة، تتابع ما رسمته خيوط البُن من أشكال، فلم تتغير ملامح وجهها، كأنها هي الأخرى حفظت هذه الأفكار والحكايات عن ظهر قلب، وأصبحت جزءًا من جو البيت.

وَعَدْتُه أن أزورهُ مرة أخرى، لكن الظروف لم تسمح بذلك، فقد مات عم نسيم بعد أيام.

انقضت فترة طويلة حتى تعودت على ناصية شارع بطرس بدون عم نسيم يجلس على قطعة من الحجر أمام بائعة الجرائد، يقرأ الأخبار ويتحدث مع الناس، وكلما فكرت في ذلك اليوم العصيب، أشعر بحماقتي، ويراودني حسٌ غامض بالذنب، لأنني ناقشته بتلك الطريقة العصبية، وأحزن لأنني خيبت ظنه. لم أكن أهلاً لهذه الثقة سواء في تفهم حكايته أو الظهور بمظهر شخص سيكمل المشوار الذي ضحى بسنين عمره من أجله. لقد حرمت نفسي من ذلك الود الذي خصني به،

t.me/qurssan

خاصةً أن تلك المناقشة لم تثمر فهما للغز الفجر الذي ظل عم نسيم يطاردني به.

حتى الآن لا أفهم ماذا كان يعني بتلك الحكاية؟ هل كان يتركها لي كأنها لغز على أن أحله؟ كثيرًا ما أجد نفسي أفكر في الأمر. ماذا كان يقصد بالفجر؟ هل هي مجرد تقاليد تفكير قديمة، كانت سائدة في بداية القرن، عندما استخدم الكتّاب فترات النهار كاستعارة: "فجر القصة المصرية"، "فجر الإسلام"، أم هي تقاليد الستينيات، وأغاني عبدالحليم: "عدى النهار" وغيرها من تلك الرموز؟

لا يمكنني الآن، بعد رحيل عم نسيم، أن أحسم الأمر، وربما لن أتمكن أبدًا، على الرغم من أنني أخمن أحيانًا، عندما أستعيد ملامحه وهو يحكي الحكاية، أنه كان يقصد أن الفجر يلوح جميلاً ومؤلمًا من نافذة زنزانة، وأنه لولا السجن لما عَرفَ المرءُ معنى الفجر.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

لن أتذكرك أبدًا

t.me/qurssan

t.me/qurssan

ماذا يحدث لو كان ـ هو ـ من يسير باتجاه محطة القطار، بعد أن أودع جثماني مقابر بلدتنا؟ ينظر شاردًا إلى أرض القمح الواسعة، في ذلك الصباح الشتوي الذي يتخلله ضوء الشمس صافيًا، محاولاً التخلص من الحزن والدهشة من أنه أودع في القبر جثمان صديقه، كما لو أن وجوده كان يكتسب معناه من وجود ذلك الجسد.

الذكريات التي سوف تخطر له واحدة إثر الأخرى، ستزاح بسرعة خاطفة في حضورها وغيابها. سيتذكر ـ على سبيل المثال ـ كيف أن محصول الذرة في تلك الأرض، قُطع بالكامل قبل أن ينضج، لكي ترى الأميرة شويكار أبراج قصر سعدون بك عندما يمر القطار الملكي، على تلك المحطة المهجورة، في طريقه إلى المزارع الملكية في البراري. سيتذكر نبرة صوت أبيه وهو يقول مندهشًا: "محصولُ بالكامل..!!"

سيتذكر كيف حَملهُ أبوه ذات يوم على كتفه في محطة قطارات طنطا، ليرى وجه عبد الناصر، وهو لم ير غير رؤوس سوداء، وضجيج وزمجرة، أذرع مرفوعة ورؤوس تتحرك، وعندما سأله أبوه: "رأيت الزعيم؟" أومأ برأسه، رغم أنه لم يكن رآه، وعاش لفترة يتذكر هذا المنظر، ويتذكر رعبه من زمجرة الحشود.

t.me/qurssan

سيحاول متعجلاً الوصول إلى المحطة، حتى لا تعود إليه الدهشة والحس بالخلاء، الكامنان في فكرة الموت. سيقف قليلاً عندما يصل إلى القنطرة الحجرية، ثم يعبر ترعة صرف داكنة الماء تَظهرُ فيها ظلال شجر السنط، وسوف يَلمعُ الصمتُ خاليًا من أي صوت. سوف تعود الدهشة قويةً، مرةً أخرى، من أنه هو الذي يمشي وصديقه هناك في القبر، فَقَدَ كل حس بالحياة، ولا يُشاركهُ التفكير في تلك الصور، وسوف يتذكر حُبهمًا المشترك لـ علياء. ستَحضر، فجأة، تفاصيل حاول مرارًا أن يتذكرها بلا جدوى.

سوف يتذكر وجه "علياء" كأنه يراها الآن، وشعرها يميل على جانب واحد من كتفيها العاريين، وملامحها المندهشة في الصباح، وهي تتعرف بصعوبة على المكان الذي قضت فيه ليلتها. سوف يتذكر كيف انحنت بجذعها إلى الأمام، وراحت ترفع الشراب النايلون حتى أعلى فخذها، وتلفه بإحكام عدة لفات. لم تعد تشعر بالخجل الآن، بعد أن قضت ليلة في شقته، وانتظرت أن يرتدي ملابسه، وقالت يومها بعد أن طلبت منه أن يناولها الحقيبة:

"لن أتذكرك ابدًا".

ستعود إليه تفاصيل عَجِز عن تذكرها منذ عدة سنوات في مقهى في الإسكندرية.

***

كان عائدًا من عمله في ليبيا، في أجازة نصف العام على غير

t.me/qurssan

العادة، إثر حنين مفاجئ أن يرى بلدته ويملأ عينيه من البيوت ويشم رائحة، بدت له في الغربة، تحمل سر الحياة. قرر أن يقضي يومًا في الإسكندرية، يتمشى في الشوارع، وينام في أحد الفنادق، ثم يتوجه في الصباح إلى قريته. يومها اختار مقهى قريبًا من البحر، وخطر له أن كل شيء مجرد خيال، وتساءل إن كان الأمر على هذا النحو، فلم تستمر الأوجاع؟ حضرت صورة "علياء" في تلك اللحظة وهي تميل بجذعها ترفع الشراب الأسمر النايلون وتلفه باستدارة فخذها.

كان المارة على الكورنيش يسرعون والهواء يدفعهم، وبدأ رذاذ المطر، وهو جالس وحده، مؤتنسًا بدفء كوب الشاي، يراقب البخار يتموج على فوهة الكوب، يحاول أن يستعيد المشهد بالكامل.

فكر في لون البلوزة. تَذكر أنها كانت ترتدي بلوفر سماوي اللون من ملابسه؛ فلم يكن معها أي ملابس. حدث الأمر على نحو مفاجئ ودون ترتيب. كانت تبحث عن عمل في إحدى المجلات في القاهرة، متعبة من طمع كل من يقابلها في جسدها. يومها التقيا في الصباح في مقهى في وسط البلد، وحكت له عن سرها، وأوصته أن يحفظه للأبد، وألا يبوح به لصديقه الذي كان على وشك خطبتها.

حكت له أنها أحبت شابًا في مدينتها الصغيرة، وفي غمرة اندفاعةِ الحب الأول لم تعد عذراء. كانت عيونها منداة بالدمع، شفافة، ملامحها رقيقة في ظلال المقهى، تبدو طيبة ومتعبة وتحتاج إلى لمسة من التعاطف. كان ينصت إليها بود وتفهم.

t.me/qurssan

في الظهيرة عندما وقف وعَلق حقيبتهُ على كتفه سألته:

"إلى أين؟"

قال:

"راجع البلد."

قالت:

"سوف أجيء معك."

ارتبك قليلاً.

سألتهُ:

"مالك؟"

قال:

"لا شيء."

وقتها كان يسكن في شقة على أطراف المدينة، وعندما أُغلق الباب عليهما، بدت مرحة مثل طفلةٍ وجَدت جوها.

قالت: "الجو بارد."

أخرج لها من الدولاب بلوفر سماوي برقبة. وقفت طويلاً تنظر إلى نفسها في مرآة الحمام، وعادت إلى الغرفة تبتسم. كان البلوفر الأزرق الفاتح فوق قميص النوم الأسود، ضوءًا يغطي نصفها الأعلى.

لم يَتذكر ـوهو في المقهىـ متى خلعت الجاكيت وأين علقت الجيب والبلوزة، ولم يتذكر لونهما مهما حاول. في صمت الليل كانت خائفة،

t.me/qurssan

وتشبثت به، وبدت كأن بها مس من السحر، كلما لمست جسده تفجر بالشهوة.

لم يستطع أن يعرف وهو يترك المقهى في طريقه إلى الفندق متراجعًا عن قرار البقاء في الإسكندرية، ما إذا كان يخترع صورتها وهي تخلع البلوفر الأزرق في الصباح، وتمد يدها إلى الجاكيت أم أن ذلك قد حدث فعلاً، لكنه يثق في أنه رأى كتفها العاري وصدرها لامعًا في الضوء، وهي تخلع قميصها الداخلي الأسود وتلفه في ورقة جرنال وتضعه في الحقيبة. لم يسألها إن كانت ستتحمل برودة الجو في ذلك اليوم، بدون قميص داخلي. كان مضطربًا وحائرًا.

لم يتمكن -يوم الإسكندرية- من العثور على سياق الحديث الذي أدى إلى تلك الجملة التي دارت حولها حياته:

"لن أتذكرك أبدًا."

لكن رنين الكلمات كان واضحًا، وهي تجلس على طرف السرير وتميل لتعثر على الحذاء. كان حائرًا، لماذا تَشبثتْ به صورة علياء على هذا النحو، عندما وصل إلى الإسكندرية، وظل يفكر في الأمر وهو يغادر الفندق ويستقل الأتوبيس إلى بلدته.

***

الآن، بعد ان أودَع جثمان صديقهُ. يقف وحيدًا أمام مزلقان القطار ينظر إلى خلاء الأرض، سيتذكر ما عجز عن تذكره في

t.me/qurssan

الإسكندرية، وتراءى له بسيطًا ذلك الذي كان خفيًا بشكل عصي.

في انتظار القطار الذي يقله من قريته إلى المدينة، ليسافر إلى مقر عمله في ليبيا، سوف يتذكر ملامحها ولون الجيب والبلوزة، وسوف يخيل إليه أنه قادر على أن يشم رائحتها. وسيتذكر تفاصيل الصباح الشتوي في شقته القديمة، حيث راحت وقائع خيانة صديقه، تلمع بعد شهوات الليل، وجاء إليه سياق الحديث الذي انتهى بالجملة التي طاردته سنوات طويلة.

قالت علياء وهي تجلس على حافة السرير:

"ما حدث الليلة لابد أن يبقى سرًا بيننا."

وقتها كان لايزال مثاليًا وغضًا، وقَابلَ كلماتها بدهشة.

قالت بوضوح وحسم:

"يجب ألا تُخبر صاحبك بما حدث."

نظر إليها وقال بحماسة ساذجة:

"لا يمكن."

نظرت إليه بسخرية:

"أنت حر."

ثم مدت يدها وقالت:

"ناولني الشنطة."

صَمتتْ قليلاً ورَفعتْ وجهها، تَلمُ شعرها من فوق كتفها وتقول:

"سأسقطك من حسابي."

t.me/qurssan

وبعد قليل:

"لن أتذكرك أبدًا."

***

في صمت محطة البلد لن يكون قادرًا على الاقتراب من ذلك الألم الذي تركه لقائهما في البلد، ومحاولته تبرئة نفسه وإلقاء اللوم عليها، واتهامها بأنها منخلة، لكنه سيتذكر ما قالت في نهاية اللقاء:

"هذا تقديرك للأمر؟"

طوح رأسه.

قالت:

"لا أريد أن أراك بعد اليوم."

لن يكون قادرًا على تذكر هذا اللقاء القصير الذي مر عليه خمسة عشر سنة، ولا تذكر الارتباك الذي قضى به ذلك العام الحاسم: ١٩٨٩. لن يكون قادرًا على تحمل انكشافه أمام نفسه باعتباره خائنًا، وهربًا من الخزي، راح يغمس نفسه في الدراسة، يلاحق البنات، وآراء الفلاسفة المتشابهة، والدرجة العلمية، وهناك في تلك المدينة الصحراوية الصغيرة في غرب ليبيا سوف يعيش كأنه قد نَسيَ الجُرح، ونَسيَ الخيانة، ونَسيَ صاحبهُ.

***

t.me/qurssan

هناك، غَمرَ نفسهُ في مُناخ آخر، يعيش وسط أساتذةٍ تعلموا في باريس، يستخدمون اللغة الفرنسية في حديثهم كطيورٍ مزهوةٍ، وهو محشور في صمته، وفي ذكريات بلا معنى عن سنوات تعليمه المبكرة في قريته، متذكرًا رائحة السباخ التي كانت تنتشرُ في الفصل، والنوافذ العالية للبيت الذي أقاموه مدرسة ابتدائية بعد ثورة ١٩٥٢، والدكك الخشبية التي تُمزق مساميرها "المرايل".

سَيُذكرهُ ذلك بضعفِ تعليمه، ولن يكون قادرًا في البداية على مجاراة الرطانةِ الأجنبيةِ لزُملائهِ، وسَيظل يَشعرُ بالحرجِ في حَضْرَتِهمْ رغم أنهُ تَربى في مدارس البلد التي كانت تقود "الأمة" في ذلك الوقت، وسوف يَسخرُ في سرهِ من كلمة "وطن"، لكنه بالتدريج سوف يَتحرر من حسه بالحرج عندما يكتشف أن تعليمهم في الغرب لم يكن إلا قشرة، وإن لم يكن مغموسًا بالألم فلن يُثمرَ شيئًا. سوف يَتعرف على الأفكار العاديةِ تَلبسُ ثوبًا مزركشًا، وسوف يُمازحهُم قائلاً: "الا تُشبهُ رغبتنا في التَشبهِ بمن استعمرنا، تُوقَ امراةٍ إلى رجلٍ أشْبَعَها ذاتَ يوم ثُم تَركَها؟"

يَغْضَبُ بَعْضهم من مزاحهِ قائلاً، إنهُ تَعلم بنفس الطريقةِ الغربيةِ وإن لم يكن قد سَافرَ إلى الخارج، أما هو فقد ظَل يَعيشُ وَجَعهُ، يُعاني يوميًا من الفقدِ ومن الخيانةِ. لا يَمر يوم دون أن يتذكر "علياء" وهي تقول: "لن أتذكرك أبدًا."

أحيانًا يَتعبُ من هذا الإلحاح لصورتها يَسألُ نَفسهُ: "لماذا أريد ان

t.me/qurssan

تتذكرني؟"، "لماذا يريد البشر أن يكونوا حاضرين أثناء غيابهم؟" "أليس هذا أمرًا غريبًا؟" يَستَبدُ بِهم طُموح غَريب أن يكونوا مؤثرين وتاركين بصمتهم على الحياة بعد غيابهم. لماذا يمنحهم هذا قيمةً وفرحًا، ألا تكْمُن هنا بذور بؤس وتعاسةٍ؟ وَظَنَّ أن الكارثةَ تَكْمُن في هذا النزوع بأن يبقى الإنسان حيًا إلى الأبد، خالدًا. وفي تلك الأصباح التي كان يحاول فيها التخلص من صوت علياء، اعترف لنفسه أن الحياة تبدأ من مقاومة هذا الميل.

وانطلاقًا من تلك الفكرة، سوف يُدرّس، في ذلك العام، فصلاً دراسيًا عن فلسفة نيتشه. يَشرحُ أفكار الفيلسوف الألماني، ثم يُعقبُ: "المفروض هو تخطي هذا النوع من الفلسفة المطلقة في فرديتها، فقد أراد نيتشه أن يحول الإنسان إلى إله. حَاولَ أن يُقاوم خضوع الإنسان للإلهِ بأن يَجعلَ من نفسه "إنسانًا أعلى"، أي إلهًا. الحياةُ الحقيقيةُ تبدأ بعد نيتشه، أن يَعيش الإنسان ككائن صغير. يَعيش وضعهُ الحقيقي في الكون كشخصٍ زائلٍ، كما يتم تصويره في الرسوم الصينية بأحجام صغيرة محاطًا بعظمة الجبال. كان يتحدث بحماس وانطلاق في تلك المحاضرات مثيرًا دهشة تلاميذه وزملائه الذين تعملوا في باريس.

في الحقيقة لم يكن ذلك بسبب تعمقه في الفلسفة، بل كان محاولة لمداواة جُرح تركته "علياء" وهي تميل بجذعها وترفع الشراب. كان يحاول أن يترجم ذلك إلى فلسفة. سينجح في تدريس الفلسفة لكن الجرح سيظل حيًا، وستضيع هباءً محاولاته في تخطي كلمات علياء، التي

t.me/qurssan

قالتها على عجلٍ، وبلا هدف تقريبًا، غير رغبة يائسة في أن تمنعه من توثيق الخيانة، والبوح لصديقه بما حدث بينهما.

***

يندهش من قدرة تلك الجملة ـ"لن أتذكرك أبدًا"ـ على التجدد والحيوية، وبيأس، يُعيد طرح الأسئلة القديمة: ما هو الممتع في أن تتذكره علياء وتشتاق إليه؟ ما الذي سيحدث في روحه لو تركت الرسام الذي أصبحت تعيش معه في ألمانيا بعد أن فسخ صديقه تلك الخطبة المزيفة، وجاءت إلى طرابلس لتراه وتقضي معه ليلة؟

يبحث بجدية عن السبب الذي جعلها تقول تلك الكلمات الغريبة في ذلك الصباح وقد كانت بالليل تشهق وتقول بصوت هامس: أنت رائع، ولماذا لا يعوض غيابها أي امرأة أخرى؟

كل تلك العلاقات والمتع والأبحاث والمحاضرات لم تكن قادرة على أن تعيد رتق روحه التي شقتها "علياء" ذات صباح. أقام عشرات العلاقات وراح يسأل بلاجدوى: لماذا يريد الإنسان أن يكون موجودًا أثناء غيابه؟ عليه أن يتوافق، بشكل ما، مع كونه "لا شيء".

***

سيكون قد تَعب من تلك الأسئلة وهو يدخل الأربعين من عمره، مع بزوغ قرن جديد، وسوف يجد بعض السلوى في علاقة عاصفة، مع أُستاذة من بلاد الشام، حَطت فجأة على تلك المدينة الصحراوية، وجاءت لتدرّس في نفس القسم.

t.me/qurssan

كان قد وهن من الغربة والآلام، ومن أول يوم أدرك أنه لن يكون قادرًا على مجارات شهوات امرأة تَربتْ في الجبال، لكن الأدوية الحديثة قدمت له الحل في أقراص زرقاء فعالة من أجل قوة الانتصاب، ستساعده في مجاراة شهوات المرأة الجبلية وقوة وصولها إلى قمة الرغبة كأنها في طقس بدائي.

في الصباح عندما تتلاشى شهقات الليل، لا يتبقى غير حس بثراء أبيض كالحرير. يجلس في الشرفة معرضًا وجهه ـمغمض العينينـ لنسيم الصحراء، ومع طعم القهوة، يرى أنه لم يتبق من الليل غير وجع في الجسم، وأن الشهوات لم يعد لها وجود، ويبدأ في عيش لون آخر من الألم: معاينة زوال اللحظات.

صباح أيام الأجازات ينزل في الفجر من بيت زميلته، يشعر بأنه يكاد يرى الزمن وهو يمر، هذا الزوال المؤلم للمتع لا يمكن تحمله، فيحاول بكل طريقة، البقاء في حالة الشبق، وساعدته الأقراص الزرقاء على ذلك. كانت بالنسبة له معجزة، لكن نصف القرص لم يعد مؤثرًا، وأصبح يتناول قرصًا كاملاً، ثم قرصين، ممتنًا لهذا الأقراص التي أعادت إليه الشباب.

***

بعد أن تخطى الأربعين ببضعة شهور سيصاب بأول أزمة قلبية، لكنه لن يعبأ. كان يجرب النسيان في أحضان زميلته، وخُيل إليه أن الجرح يندمل، وذات ليلة في بيته، في تلك المدينة البعيدة، سيكون راقدًا على السرير يشاهد فيلمًا أجنبيًا. تأثر مرة أخرى بمشاهدة الفيلم

t.me/qurssan

كما حدث له منذ عدة شهور عندما شاهد فيلم "محامي الشيطان"[1]. استعاد قصة زينب بنت خالته التي كتبها في تلك الليلة، ورغب أن يقوم ليبحث عنها بين الأوراق ويعيد صياغة ما كتب. بدت له لحظة الإلهام الآن كأنها أهم ما عاش في حياته. كان قد تأثر بمشهد انتحار الزوجة وهي تشق رقبتها بقطعة من زجاج مرآة. مشهد العنف في الفيلم لا يُحتمل، وعادت إليه رغبته في كتابة القصص. يومها كتب بسرعة وانفعال قصة زينب التي ألقت نفسها في النيل. كان يريد أن يقارن هذا العنف الفج الذي يضرب بجذره في فلسفة نيتشه، بذلك الحس المقدس الذى أدارت به بنت خالته أحداث موتها.

لاحت في مخيلته افتتاحية القصة، وصفه للسماء البلورية الزرقاء في الفجر، وطريق ضيق بين الغيطان، أرضه مبلطة من أثر المطر، لقد رأى أثناء الكتابة الرغبة الدفينة التي قادت زينب: رغبة التطهر، وظهر له نوع الروح التي تسري في جسد البنت. يمكن لبنات أخريات أن يقبلن ما حدث، ويبحثن عن طرق أخرى للتعامل مع الخطيئة؛ بالهرب أو الزواج أو الترقيع، لكن زينب أصرت أن تعيد نفسها إلى نقطة البداية. جربت شيئا لم تحبه، وأرادت أن ترجع إلى حالة البراءة التي دنستها بفعلتها. لم يكن أمامها غير النيل الذي يمحو عن بناته ملامحهن الدنيوية، ويمنحهن جمالاً خالدًا، يظهرن به على ضفاف الترع، في ظهيرات الصيف، يمشطن شعورهن، ويشكلن إغواءًا لا يتحمله بني البشر.

١- فيلم أمريكى The Devil's Advocate إنتاج ١٩٩٧ بطولة:كيانو ريفز وآل باتشينو.

t.me/qurssan

يريد أن يقوم كي يحرر القصة، لكنه شعر بألم في صدره. بعدت المسافة بين السرير والأوراق على المنضدة بجوار التليفزيون بُعد السماء عن الأرض. كان "الملاك" شاهدًا على تلك الأفكار. جاء وجلس على حافة فراشه. هو نفس الملاك الذي كان يلمحه عندما كانت زينب تبيت في دارهم. حاول أن يقوم مرة أخرى وأخرى وكلما حاول يزداد الألم ضراوة. أخيرًا قال الملاك بنبرة ودودة: "لن تستطيع أن تصل، أعرف القصة، أعرف التفاصيل كلمة كلمة، كنت برفقتك طوال الوقت، الآن فات أوان الورقة والقلم". ونظر في عينيه نظرة طويلة لم يجد نفسه بعدها.

***

سوف يرحل جسده عبر الصحراء، وسوف يُلقي ضباط الحدود نظرة على وجهه، الذي تغيرت ملامحه بسرعة، ويفحصون الأوراق والتقارير الطبية بدقة، وسوف يُحمل إلى قريته، وستقف أمه تنظر إلى جثمانه غير مصدقة أنه غير قادر على أن يقوم كي تأخذه في حضنها.

في ذلك الصباح الشتوي ستكون سماء البلد لها نفس لون البلور الأزرق الذي تخيله، وسيتردد في فضائها صوت ميكرفونات الجوامع تنعى موت الدكتور "ياسر حجازي" الأستاذ في جامعات ليبيا. لو عاين هذا الجلال الذي منحه له الموت، لابتسم نصف ابتسامة وقال: ماذا نفعل؟ أهلك، هكذا منذ آلاف السنين، يقدسون الموتى، كل الموتى في نظرهم "أوزير الطيب".

***

t.me/qurssan

الآن يرقد مرتاحًا، ويترك لي الغرابة التي لم تفارقني وأنا أجلس على الدكة الخشبية منتظرًا القطار؛ الغرابة غير القابلة للتحمل من أنه كان يمكن أن يكون هو من يركب قطارًا يمشي بثاقل بين القرى ويتذكرني.

كان يمكن بعقله الأسطوري أن يحول المشهد إلى شيء آخر. كان يمكن أن يرى في ضوء الشمس ميلادًا جديدًا وفي الصمت همهمة آماد بعيدة، كان يُمكنه وهو ينزل من محطة القطار ويدخل محطة الأتوبيس أن يقف قليلاً مستسلمًا لذكرياته عن تلك المدينة التي تعلمنا فيها، أن يفكر أننا صنعناها بأوهامنا وأخيلتنا، ويندهش، بعد أن يضع حقيبته فوق شبكة السيارة البيجو التي ستقله إلى الإسكندرية ومنها إلى صحراء ليبيا، أن جسده هو الذي يعيش وجسد صديقه هو الذي دخل ظلمات القبر. لكنه كالعادة، لن يجد فرقًا كبيرًا بين من يرقد تحت التراب ومن يمشي فوقه.

***

t.me/qurssan

زينب فخر الدين

t.me/qurssan

t.me/qurssan

اختفاء زينب

لا بد انها تَسلّلتْ من الدار دون ان يشعر بها أحد، وعَاينتْ في ضوءِ شحيح شجرة التوت الجافة تقف ساكنةً بجانب القنطرة، والكشك الصغير الذي تَبيتُ أمامهُ سيارة فورد قديمة. ربما كان وشيش صنابير المرشح، الصوت الوحيد المسموع في تلك الساعة، وربما تناهى الى سمعها صياح ديك تخايلَ له الفجر، وامتد أمامها الطريق المؤدي الى البحر، بجانب ملعب كرة القدم الواسع ومباني الوحدة المجمعة، مغمورًا في الضباب، وربما تساقطت على رأسِها- دون ان تشعر بها- قطرات الندى من شجر الجازورين العالي وهي تمضي في طريقها، تعبر الغيطان والترع ومصانع الطوب قبل أن تصل الى بحر النيل وتسلم له نفسها.

في ذلك اليوم بحثوا عنها في كل مكان، عند الأقارب، وفي العزب وفي البلاد المجاورة، وأرسلوا مرسالاً الى طنطا ليسألوا الست خديجة إن كانت زينب قد سافرت إليها.

بعد ثلاثة أيام من اختفاء زينب، قامت خالتها صفية في غشاوة الفجر، لتبل البذور استعدادًا لزراعة القطن. تذكرت وجه زينب وهي

t.me/qurssan

تشكو لها: "يا خالة صفية، ست عجوزة شعرها أبيض مثل القطن، تلبس جلبابًا أبيض، تزروني في الفجر، وتشير إلى أن أتبعها إلى البحر."

خَطفتْ الخالة طَرحتها. وحَملتْ اللمبة الصفيح على رأسها وخرجتْ قبل أن يُنير الدنيا الضوءُ الرصاصي لفجر أيام الشتاء. قَطعتْ الطريق إلى غرب البلد، طَرقتْ باب دار فخر الدين، وعندما فَتحتْ لها أختها نفيسة قالت بيقين:

"البنت رَمتْ نَفْسها في البحر".

كان تَخمينُها في محلهِ، ففي نفس اليوم عَثروا على جثتها عند القنطرة التي تخرج عندها الجثث الغارقة في النيل.

الحكاية العلنية

ذات يوم كانت زينب وحدها في الدار. مَسحت زجاج المصابيح. فَرشتْ الحصائر. أخرجت الأرز من الفرن وجلست على العتبة. الكل مشغول. جدها يصلي المغرب في الجامع وأبوها وأعمامها مُقَسَمُونَ للعمل في مصنع الطوب والغيطان، والنساء في ماكينة الطحين، والأولاد يلعبون عند القنطرة. أمام الدار جرن واسع. من ظلمتهِ جاء القط. أسود مثل الليل. وَقَفَ أمَامَها مُباشرة. يَفْصِلُ بينهما عتبة الدار. حَدقَ القطُ في عيني زينب فقالت خائفة: "بِسْ بِسْ بِسْ." لم يَتزحزح. رَفَعَ ذَيلهُ الأسود، وزينب تتراجع: "بِسْ، بِسْ." لكن القط لم يعبأ بها، تَشَجَعتْ وَهَمتْ

t.me/qurssan

بمطاردته لكنّه هَرّ بعناد، وبدلاً من أن يعود إلى الجرن، عبر – في تحدٍ – باتجاه زينب ولمس طرف ثوبها واختفى في الدار.

منذ تلك الليلة وزينب عليلة. لونها القمحي تحول إلى لون باهت يكاد يكشف عما في جسدها من أوردة وشرايين. صدرها الذي كان نافرًا ضَمُر. وعيناها الواسعتان ذات الحدقات الكبيرة، غَدتْ عَميقة السواد، ومخيفة إلى حد ما. أصبحت بمرور الأيام مثل طيفٍ شفافٍ.

مَرضتْ أشطر وأطيب البنات، وأكثرهن حسنًا، إذا تغاضينا عن فمها الواسع الذي كانت تعتبره عيبا في حسنها، فتداريه بكفها عندما تضحك. أثناء الشرود يستدير وجهها بإحكام ويصبح جميلاً، وتُحلقُ في ملامحها بسمةٌ فيها نَوعُ من الانتباه، كأنها تُدرك ما يدور حولها وهي شاردة، كأن لها عدد أكبر من الحواس. عيناها ورموشها الطويلة تجعل نظرتها فاتنة. هذه النظرة أصبحت مُخيفة بعد أن قالوا إن القط لمسها قبل أن يرحل إلى الظلمات التي جاء منها.

قالوا إن روحا تسكُنُها. تأكد زعمهم عندما راحت تتكلم بصوت غليظ في لحظات شرودها أو عندما تكون وحدها في المقاعد العلوية أو قاعة المعاش. جاءت من تلك الغرف المظلمة أصوات خشنة غاضبة كأنها مجموعة أشخاص يتعاركون. عرفوا في النهاية أن تلك الأصوات تجرى على لسانها.

في آخر ليلة من شهر رمضان، اعتادت زينب وأمها نفيسة أن تذهبا لتناما في بيت جدتها. عادة قديمة تلتُم فيها الأخوات بأبنائهن

t.me/qurssan

وبناتهن، لعمل الكعك والبسكوت. يسكنون الدار الواسعة المخصصة لخالها الذي يقيم ويعمل في الإسكندرية. في تلك الليلة سهروا طويلاً في عمل الكعك وآن آوان النوم. نامت أمها في طرف الفرشة ثم صَحتْ عندما سَمِعتْ صوتًا غريبًا. قامت مَفزوعة. نَشف دمها عندما رأت زينب تنظر إلى الحائط وتتحدث، بصوت خشن، كأنها تخاطب شخصًا بلغة غريبة. الرعب الذي جربته الأم، أقوى من قدرتها على التحمل. فلم تقدر على التحرك من مكانها. من جوف زينب كان يتحدث شخصٌ آخر غَيرها. من لطف الله أن الأصوات رَحلت وَظَنت الأمُ ان زينب قد عادت إلى نفسها، لكن الرعب امتد إلى ما هو أبعد، فقد راحت البنت تُرتل تَراتيلاً بلغةٍ غريبةٍ عَذبة تُدر الدموع. تراتيل تشبه في نغمتها ترتيل القرآن، غنيةٌ بموسيقى أكثر حزناً كأنها تندب شخصًا مات، وفي نفس الوقت تُهدْهدهُ حتى ينام.

تسللت الأم وايقظت أختها صفية التي كانت تنام مع بنات أخيها في الغرفة المجاورة. جاءت مهرولة واقتربت من زينب. وضعت يدها على كتفها. شهقت البنت ونظرت إليهما باستغراب. استغرق الأمر لحظات حتى عادت من غيبتها وعرفتهم.

اللغة التي جرت على لسان زينب لغة غريبة، يكثر بها حرف الشين والراء والخاء. لغة موجعة كلها نواح وحزن. يتجعد وجه زينب مثل صفحة الماء وهي تنطق بها وعيناها تفيضان بالفزع. أصوات قديمة لا يسمعها المرء إلا ويتخيل أيادٍ مرفوعة تُلوحُ بمناديل سوداء. تجمعت مخاوف نفيسة حول نطق ابنتها بتلك اللغة وكلما أصبحت على وشك

t.me/qurssan

الكلام تخاف أن تخرج من فمها تلك الأصوات. لو سمعها أبوها أو جدها لأصبحت مصيبة. أهون شيء أن يطردها فخر الدين من الدار ويحكم على ابنه أن يطلقها.

أصبحت نفيسة في عزلة تامة. لايمكن أن تبوح لسلايفها بما حدث لابنتها، سوف يُعَايرنها، والبنت التي انتظرت أن تُزوجها أحسن شباب البلد، ذَبلت. لم يكن لها ملجأ غير أختها صفية وأمها التي أشارت أن تصحب البنت إلى الشيخ جاد الحق، في البر الثاني من البحر. ميعاد علاجه للأجساد المسكونة بالأرواح يوم الجمعة، وسيرته معروفة في البلاد كلها.

فجر الجمعة جهزوا الحمير. نفيسة وابن أخيها الشاب الذي أمرته جدته ألا يترك عمته ويكون حارسًا لها. يومها وجدوا زينب تتكوم تحت الأغطية، وترفض أن تقوم. متوترين من انقضاء الوقت، ومن الضجة التي يمكن أن تثيرها فتوقظ الشيخ فخرالدين ويحرمهم من الذهاب إلى المداوي، راحت الأم ترجوها أن تقوم وترتدي ثيابها، لكن البنت تصر ألا تتحرك من الدار إلا برفقة خالتها صفية. ذهب الشاب بسرعة ليحضر الخالة قبل أن ينكشف الصباح.

تحركت القافلة من الجرن. قطعوا طريقًا ضيقًا بين الغيطان ومناطق تبدو بسكونها وصمتها وحفيف ورق شجر الكافور العالي كأنها أرض مهجورة. زينب خائفة وعلى وشك أن تنزل من فوق الحمار وتعود جريًا إلى الدار، لكن وجود خالتها صفية يطمئنها. الطريق طويل كأنه

t.me/qurssan

لن ينتهي، حتى ظهر النهر عارمًا في اتساعه ومخيفًا. يحيط الصمت بشواطئه البعيدة. شَهقتْ زينب، كأنها تدرك بحدسٍ باطني أنها تعاين كفنها. تَوقّف الحمار الذي تركبه رافضًا السير، وظلت على هذا الحال من الاستغراق بعض الوقت. رفعت عينيها وابتسمت لنفسها تلك البسمة الذاهلة التي أصبحت علامة أنها ممسوسة.

انتظروا القارب حتى أفْرغَ رُكابه في الضفة الأخرى وبدأ يتحرك في اتجاههم. أخذوا مكانهم فيه بعد الاتفاق مع المراكبي على الأجرة. أصبحت زينب قريبة من الأصوات الهامسة. ابتسمت للموج، ومالت تلمس سطح النهر، ثم ملأت كفها وشربت، ما أحلى ذلك الماء البارد الذي لم تشرب مثله في حياتها، ظلت تنظر إلى الماء وتموجات سطح النهر وتبتسم لنفسها.

رسى المركب في البر الثاني. صعدوا عدة أحجار وانفسح أمامهم مكان واسع كالجرن. خلْق من كل بلاد الدنيا. بعضهم يرتدي ملابس أهل البندر، وبعضهم فلاحون. عجائز وأطفال، ورجال من بلاد العرب يلبسون العقال، ونساؤهم تلبس النقاب، وعربات ملاكي وأجرة تركن تحت شجر الجميز، وجرن تُربط فيه الحمير. يَفرشُ الناس حصائر وأجولة وملاءات أو يجلسون على الأرض ليتناولوا غذاءهم. يحكون في ساعات الانتظار ما حدث وكيف تبدلت حياتهم. كيف يمكن أن تظهر للمرء روح أو يسكنُه واحد من إخواننا من تحت الأرض بصدفة غريبة. يتحدثون عن أن ابن آدم ضعيف وهش وبه مناطق من الممكن للأرواح أن تتسلل منها. امرأة عجوز من الصعيد حكت لـ صفية

t.me/qurssan

عن تلك المناطق: الجبهة وأسفل الرقبة، والتقاء الرأس بالظهر. تلك الأماكن يجب أن يسدُها المرءُ في وجه الأرواح التي تحيط بنا.

يجلس المداوي على مصطبة من الطين. يرتدي جلبابًا مثل أي فلاح، ويقف أمامه المريض مثل طفل يُسمّع اللوح للفقي. يقبض بيده الخشنة على جبهته حتى تكاد تتهشم مثل بيضة، ويبدأ الحوار ببطء مع الروح التي تسكنه. بعد قليل تتخلى الأرواح عن مراوغتها وتتكلم بأصوات غريبة وبلغات أخرى. في البداية يحاول المداوي أن يُقنع الكائن الخفي أن يَترك الجسد ويرحل إلى عالمه. يَسكتُ الناس في الجرن، كأن الطير حطت على رؤوسهم.

ظنت صفية أنها تُعاين يوم القيامة. أكثر ما أخافها هو أن من نعرفهم من الناس يظهرون كأنهم خِرق يرتديها كائن آخر. وعاءٌ يختبئ فيه ذلك المخلوق. يُسيطر المداوي على تلك الكائنات الخفية التي تبتلع ما كنا نعرفهم من الناس، وأصبحوا، بسبب لمسته، غُرباء.

أخيرًا جاء دور زينب.

ارتعشت نفيسة وصفية، وتكومتا كأنهما قطعة لحم واحدة، نفس الملامح تقريبًا والعيون السوداء البارقة وشدة الطرحة على الرؤوس. تحدث المداوي مع زينب بتلك اللغة الغريبة وردت عليه بنفس اللغة. ظل الرجل يتوسل إلى الروح أن تترك جسد البنت لكن المرأة التي سكنت جسد زينب تحدثت بصوت امرأة خليعة. سَمِعتْ نفيسة شعر رأسها يُطقطق في تلك اللحظة، لأن من سكن جسد زينب روح عنيدة

t.me/qurssan

ولا تريد أن تفارقها. حاول الرجل أن يسيطر عليها بالإقناع، وعندما رفضت، مد يده وأمسك عصا من الخيزران، وراح يضرب زينب، والمرأة تقول بصوتها الرفيع الخليع: "افعل ما تشاء لن أتركها". فشل الضرب. أمسك المداوي زينب وألقاها في النيل. عندها صرخت نفيسة وصفية في نفس الوقت.

على سطح النيل تطفو ملابس زينب منتفخة بالماء، وضفائرها تعوم ومنديل رأسها انحل عن شعرها الطويل الناعم، وبعد أن غطست في النهر، بدأت تشهق، وصرخت المرأة من جوفها. طلعت زينب من البحر تشهق، ويتشنج جسدها، وعندما أفاقت ارتعشت وأجلستها أمها قليلاً في الشمس حتى تجف ملابسها.

عادوا في المغرب. الطريق أطول مما كان في النهار، تسكن المخاوف جنباته، ونفيسة تقرأ آيات من القرآن وتقول لأختها صفية بحسرة:

"أين كان يختبيء لي كل هذا؟"

عادت زينب تعمل مع بنات الدار، تحمل الغذاء لأنفار جمع القطن، وتجهز التقاوي، وتخبز، وتركت عيناها اللامعتان وحديثها المنتظم واختفاء اللغة الغريبة من لسانها انطباعًا بأنها قد شفيت. بعد عدة أسابيع سمعتها أمها تبكي في الليل، تبكي وتقضم أظافرها كأنها تريد أن تأكل نفسها، وعندما نادتها لم ترد عليها.

عادت بها مرة أو مرتين إلى المداوي في ذلك الصيف، لكن ذلك استفز الروح التي راحت تتحرك بحرية في جسد زينب وتطلب مطالب

t.me/qurssan

من الصعب تلبيتها، في بيت محافظ مثل بيت فخر الدين، الرجال لا يملكون وقتًا لدلع البنات الفارغ، وينظرون إلى أمور النساء بريبة، ويرون أن ذلك تعطيلاً لسير العمل، وانشغالاً بأمور لا تستحق الانشغال؛ مثلما قال زوج نفيسة عندما تجرأت ذات ليلة وحدثته عن مرض البنت:

"يعني أترك أشغالي وأقعد جنبك انت وبنتك؟"

بهذا الرد أحكمتْ العزلة سيطرتها على نفيسة وزينب.

مطالب الروح نزوات من الصعب إرضاؤها. تطلب أن تسافر إلى طنطا لمقابلة السيد البدوي الذي ينتظرها في مقامه ويحجز لها مكانًا بجانبه. تريد أن تفك ضفائرها وتمشي في أرض النخيل، وأحيانا تكون المطالب عيبًا خالصًا مثلما طلبت ذات يوم أن تُدخن حجر معسل، ولكن ما كان غير مقبول أنها أمسكت المقص وقصت ضفائرها الثقيلة الناعمة مثل الحرير.

كانت رؤية نفيسة لابنتها الشابة بلا ضفائر كارثة لم تتحملها وظلت تبكي جالسة بجوارها في المقعد.

في صباح اليوم التالي حبكت لها أمها المنديل الكحلي المطرز بالخرز على رأسها ولفته بالطرحة وأوصتها ألا تكشف رأسها، حتى ولو قعدت أمام الفرن أثناء الخبيز وإن سألتها زوجات أعمامها تقول إنها تعبانة وتلم جسمها من البرد.

t.me/qurssan

في الليل حملت نفيسة ضفائر ابنتها وذهبت إلى دار أختها صفية. الأمر فوق تحمل الأختان، قَصُ الشعر بهذه الطريقة كالذبح. ماذا حل بالبنت حتى ترغب في أن تَجُزَ شعرها؟!. أخذت صفية الضفائر ولفتها في منديل قديم وقالت إنها سوف ترميهم في البحر ليكبر شعر البنت بسرعة مرة أخرى. بعد ذلك بعدة أيام، أخبرت زينب خالتها صفية أن (ست عجوزة شعرها أبيض مثل القطن)، تطلب منها أن تتبعها إلى البحر.

الحكاية الخفية

بعض الأقارب حتى الآن لا يصدقون أن زينب تخلصت من حياتها لأنها فقدت بكارتها، وصدقوا الحكاية العلنية. في ظنهم أن زينب سكنتها روح من الجان، أغوتها أن تلقي بنفسها في النيل، وعندهم قناعاتهم، فالجان موجود في القرآن، وحكوا لهم حكاية المداوي عدة مرات، وسمعوا زينب تتكلم بلغة غريبة. الجان لهم عوالم يعيشون فيها مثلنا، لهم مدن تحت الأرض وفي أعماق النيل. تم إغواء زينب لكي تعيش هناك في البيوت التي يسكنها أخوتها. أحبوها واصطفوها من بيننا وأخذوها إلى بلادهم. ويستدلون على ذلك بأن البنت كانت شفافة وطيبة وليس لها في خبص البنات. لا تجلس على شط الترعة لتحك كعبها بطوبة حمراء مثلما تفعل بنات عمها عندما يذهبن إلى مصنع الطوب. ولاتحبك المنديل حبكًا هينًا حتى ينحل ويظهر شعرها ثم تعيد ربطه. لا، لا يمكن أن تكون زينب من هذا النوع من البنات. كانت

t.me/qurssan

"خام". لاتعرف غير شغل الدار وأعمال الفرن، وعندما ذهبت إلى الكُتاب وأبدت قدرة على الحفظ وكان يمكن أن تتعلم مثل بعض بنات "نخطاي" في ستينيات القرن العشرين، أخرجها فخر الدين فورًا وبعث بها لإحدى قريباته لتعلمها الخياطة. البنت تتعلم أعمال الدار فحسب.

ظلت الحكاية العلنية سائدة وحملها أجيال وأجيال من العائلة، وكلما طرأت لهم سيرة زينب، يتم نفي السوء عن البنت. في نخطاي مثلما في غيرها من البلدات الصغيرة يُحولُ الموت الناس إلى كائناتٍ طيبةٍ حتى الأشرار منهم، ودائمًا ما تَنَهدَ الناسُ وهم يقولون: اذكروا محاسن موتاكُمْ، ليُسكتوا أي تفكير فيما حدث حقيقة لزينب بنت فخر الدين. لكن ذلك لا يمنع الشكوك من مُناوشة الأذهان، خاصةً فيما يخص دفنها، فقد ظل السؤال المؤرق في أذهان بعض أبناء العائلة لسنوات طويلة: إن كانت البنت قد أغوتها الروح التي سَكنت جَسدها، فلمَ لم يكرمها الأهل أثناء دفنها؟

من يعرف الحكاية الحقيقية هي الخالة صفية، الأم الثانية لزينب.

تعرف الخالة أن زينب أحبت المتولي ابن زبيدة الذي كان يعمل سائق الجرار الزراعي في مصنع الطوب المملوك لأهلها، وأنها فقدت بكارتها في غرفة التِبن، في أحد مرات وجودها وحيدةً في الدار. كأنها منومة، فَقَدت أعز ما تملكه فتاة من أسرة مثل أسرتها. لم تتحمل الأمر، لأن العقوبة هي الذبح، وهي نفسها أذهلها تفريطها في نفسها؛ ، لذلك طار عقلها.

t.me/qurssan

الدائرةُ كانت مُحكمة الإغلاق حول زينب، أولاً بسبب مشاعرها ونفورها مما حدث لها، وثانيًا بسبب يأسها من إصلاح ما حدث. كانت زينب ذكية وشاطرة ولم تصدق أن فقد البكارة سهل بهذه الطريقة، ولم يكن هناك أمل في الزواج من المتولي لأن أهلها أصحاب أملاك ومصنع كبير.

كان ذلك في بداية السبعينيات من القرن العشرين عندما كانت نخطاي لاتزال تعيش الأخلاق القديمة الموروثة من الأزمان السحيقة. أهل زينب لايمكن أن يقبلوا المتولي زوجًا لابنتهم، هو سائق جرار عندهم والمشكلة الأهم أنهم لن يقبلوه لأنه ابن زبيدة.

زبيدة امرأة مكشوفة الوجه، عاشت عمرها نافرة، لاتعتد بالبلد ولا بكبرائها، وساعة الجد، تدافع عن نفسها مثل ذئبة. لا تتورع عن أي عمل، تسرق وتبيع المعسل والحلوى على رؤوس الغيطان في أوقات الحصاد، ويمكنها أن تنزل أي أرض وتأخذ الخيار والطماطم والباذنجان، وعندما يزعق فيها صاحب الأرض، تقول بجرأة من يملكون الحق: "أكلتي لن تنقص محصولك." وعندما لايكون في بيتها طحينًا تَطرُق أبواب دور كبار البلد ـدون خجلـ وتطلب صفيحة دقيق لتخبز لقمة للمتولي.

على المصاطب في نخطاي يتندرون بحكاية جوانب من حياة زبيدة. ذات يوم اشتكتها جارتها في "النقطة" بأنها سَمَّمت البط. في تلك الحادثة كانت زبيدة مظلومة، ويومها جاء غفير ليصحبها لتكلم حضرة الضابط. رفضت أن تصحبه، وعندما حاول أن يجرها بالعافية، قفزت وأمسكت

t.me/qurssan

الرجل من "محاشمه"، وجلست على الأرض. زعق الرجل من الألم حتى خلصه الناس من يديها. يومها ضحك الضابط وارتدى الكاب الميري وخرج من النقطة وحوله الغفر والعساكر متجهًا إلى دار زبيدة، وعندما رأته قادمًا انطلقت كالسهم إلى دار الشيخ محمود القط وجاءت ترفع يدها بالمصحف. وقفت أمام الضابط ووضعت القرآن على عينيها، وبصوت مبحوح يشع بالحقيقة قالت: "والخاتمة الشريفة، إلهي أتعمي، ما أوعى أفرح بالمتولي، ما سمت بط عيشة العمشة، تروح تسأل سلايفها."

سيرة شباب زبيدة لا تغيب عن الأذهان رغم تبدل حياتها وبُعد الزمن. تظهر أثناء العراك بينها وبين النساء. وهي في الحقيقة لا تهتم بسيرتها، لكن تلك السيرة هي التي أحكمت الحلقة حول زينب فخر الدين وكانت العقبة الكبرى في طريق حل مشكلتها.

زبيدة أيام شبابها كانت مليحة وريانة، تعيش على كيفها. مات أبوها وأمها وهي صغيرة وتربت في بيت خالتها، وعندما شبت، وفاح عبيرها في حارات نخطاي الطينية الضيقة، أصبحت حكاية شباب البلد ورجالها، بجمالها وجرأتها ومنح نفسها لكل من يريد مقابل المودة، وأحيانا لقاء بعض المصالح: كيلة أرز، عِب قطن، جلباب في العيد. لكن كرمها كثيرًا ما طغى عليها فمنحت نفسها بدافع من المتعة وأحيانًا بدافع الزهق وتمضية الوقت.

يقولون إنها فقدت بكارتها في زريبة دار غياث، في شبابها المبكر،

t.me/qurssan

عندما لم تستطع خالتها أن توفر لها طعامها فأرسلتها لتعمل في دار ميسورة تخبز وتحلب وتكنس تحت البهائم مقابل أجرا شهريًا وموسميًا من الحبوب وكِسوة، وهناك في تلك الدار البعيدة عن البلد، خلف المقابر الجديدة، تكثر المخازن والأماكن السرية لممارسة المتع. في غرف تلك الدار المترامية، تركت نفسها لكل من طلبها، في البداية بمحبةٍ ورغبةٍ وبعد ذلك بحكم العادة، وأصبح المكان يشغي بالشباب في الليل حتى طردها آل غياث من العمل.

عادت إلى بيت خالتها وقضت فترة تعمل مع أنفار الجمع والزرع والخبيز، حتى استطاعت خالتها أن تُزوجها من رجل مريض يرغب فيمن تَخدمه. في هذا الزواج القصير الذي لم يستمر غير عام واحد حملت بالمتولي وأنجبته قبل موت الرجل بأيام، حتى إنها أثناء العزاء كانت غارقة في حمى النفاس.

لا أحد يعرف ابن من؟ لكنهم بالشبه يقولون إنه شكل عائلة راضي. أبيض الوجه مثلهم، وطويل الجرم، وعيناه عسليتان. لكن لون شعره الناعم هو شعر أمه، كما تقول جلسات تتبع أثر الناس في الناس التي تعقدها العجائز في شمس الشتاء على سطوح الدور.

أصبحت زبيدة أرملة وحرة، وأصبح لها دار تأويها وتستقبل فيها من تشاء، ولم يعد لخالتها أو أي شخص آخر، سلطان عليها.

يبالغ أهل نخطاي أحيانًا وهم يحكون سيرتها ويقولون إنها في زمن شبابها وفتوتها، كانت تهب جسدها بسهولة لمن تحب، وأحيانا يكون

t.me/qurssan

عندها رجل ويطرق بابها رجل آخر. لكن تلك الفترة لم تخل من منغصات ومتاعب، بل كادت تدفع حياتها ثمنًا لمتعتها، ففي عددٍ من المرات كادت تموت وهي تحاول أن تُجهض نفسها أو تَلدُ عُنوة بدون دَاية. فقد كانت خصبة تحبل كل عام. لم يكن عصر موانع الحمل قد جاء، فتعودت أن تُسقط حَملها وأحيانا تلده وتدفنه في بطن الدار، ويقولون في نخطاي إن دارها مقبرة من كثرة الأطفال والأجنة التي انتقلت من رحمها إلى رحم الأرض، ويضحكون أحيانًا وهم يتندرون أن أبناء أغنى رجال البلد وأفقرهم مدفونين في بطن دار زبيدة، وأن البلد كلها أقارب بسبب الأجنة التي حملها نفس الرحم ودُفنت في بطن تلك الدار.

لكن الأمر تغير عندما أصبح المتولي صبيًا. أحبت أن تصبح مثل نساء نخطاي، وتمنت أن تعلمه ويتوظف مثل زملائه. كان ذلك في الستينيات والدنيا قد فتحت أبوابها ويمكن لابنها أن يكون شيئًا كبيرًا في البلد، وأعدت نفسها لكي تكون أم الأفندي. من يعرف؟ يمكن يطلع دكتور أو مهندس. أعدت نفسها لهذا المستقبل بإيقاف سيرتها السابقة.

لم يتمكن أعتى الرجال في البلد من نقض قرارها، فهي لا تخاف من مُعايرتها بسيرتها، تَعرفها وتحكيها لأصفيائها من البنات والنساء، وأحيانًا تحكي عن عادات الرجال وتسخر منهم وتصف بعضهم بأنه منفوش على الفاضي، والآخر بأنه جوال فارغ. لم يكن لها نقطة ضعف، لأنها لا تخفي شيئًا، ومن ناحية أخرى قادرة على مواجهة أي رجل وفضحه، ويمكن أن تُفرج عليه الرائح والغادي. غير أن الكلام

t.me/qurssan

يظل سائرًا بأنها تصطفي سرًا من تحبه وتعاشره، رغم الشواهد التي تثبت أنه، منذ أصبح المتولي شابًا، لم تعد لها صلة بزبيدة التي كانتها في فترة الشباب.

لم يُفلح المتولي في الكُتَّاب، وظل يَتنطعُ على القهاوي والطرق، ولم ترض أن يكون مصيره مثل مصيرها. انتظرت سن التجنيد لكي تدفعه إلى التطوع في الجيش، لكنه رفض ذلك وكاد يهرب من البلد، فلم يُطلب إلى الجيش أثناء سنوات الحرب ولم يقض السنوات الطوال على الجبهة بعد النكسة يحارب الأعداء مثل رفاقه، فباست يد الشيخ عبدالرحمن سليم حتى يجعله صبيًا لسائق الجرار في الجمعية الزراعية، وهناك تعلم قيادة الجرارات الزراعية وعمل في مصنع فخر الدين للطوب.

كان شابًا مليحًا مثل أمه، ولابد أن زينب أحبته، لكن عائلة فخر الدين، لاتعرف هذا الكلام الفاضي، وهذه الخيابة التي تعلق بها الصبيان والبنات بسبب انتشار الراديو وظهور الأفلام في تليفزيون الوحدة المجمعة. في دار فخر الدين الخروج عن التقاليد خطوة واحدة يؤدي إلى أن يسيل الدم على الفور، ولأن زينب كانت طيبة فقد منحت نفسها لمن تحب، ودفعت الثمن، وألقت بنفسها في النيل.

انتهت حرب تحرير سيناء بعد موت زينب بأعوام قليلة، وانفتحت الدنيا، وسافر الشباب إلى البلاد القريبة والبعيدة. ترك المتولي العمل في مصنع فخر الدين وسافر إلى العراق ثم إلى الكويت ولم يرجع إلى البلد

t.me/qurssan

ولم يحضر جنازة أمه، وبقي هناك حتى دخل صدام حسين الكويت وعاد مع العائدين.

أخيرًا جاء ليستقر في نخطاي. باع دار أمه واشترى أرض الجوافة المجاورة لدار الخالة صفية، ولكي يجهز الأرض ويبنى الفيلا التي يحلم بها، قرر قطع النخلة العتيقة بين أرضه وجرن الخالة صفية. كان شكله قد اختلف عما كان عليه قبل عشرين عامًا. لم يعد ذلك الشاب النحيل الذي يعمل على الجرار في دار فخر الدين، بل تخن من أكل بلاد الخليج الوفير، أصبح له كرش وشارب كثيف، والأدهى أنه أصبح مثل البغل بلا إحساس، كما قالت الخالة صفية.

في نظر الخالة، المتولي ضحك على البنت وغرر بها، ويا عيني البنت كانت رقيقة مثل النسمة لم تتحمل ما حدث لها، ويجيء هذا البغل في النهاية لكي يقطع النخلة، "لايمكن حتى لو أدى الأمر إلى موتي" قالت لأولادها. حاول الأولاد أن يوقفوها لكن النار اشتعلت في قلب الخالة ولم تتمكن من إطفائها.

يوم قطع النخلة جاءت من دارها جريًا وأوقفت الرجال عن العمل وقالت لهم إن النخلة لن تُقطع. قال المتولي: "يا خاله النخلة في أرضي وحقي أن أقطعها." قالت بإصرار: "النخلة لن تُقطع، إنها على الحد بين الجرن وأرض الجوافة، جذرها قد يكون في أرضك وفي أرضي، لن تُقطع النخلة." واحتد النقاش وعَلت الوجوه مسحة من الدهشة من موقف الخالة وتَخضبت الجباه بالعرق وأخيرًا غَلبها ما

t.me/qurssan

يكمن في قلبها فقالت بغضب:

"تريد ان تأخذ أرض الأكابر يا ابن زبيدة؟"

صمت الرجال ونظروا في اتجاهات مختلفة. لم ينظر أحد إلى وجه الخالة صفية التي صوبت نظرتها النارية إلى وجه المتولي كأنها تريد أن تقطعه بأسنانها كما حكت لابنها، لكنها – يا لحزنها- لا تملك غير الكلام تطفئ به نار القلب.

قالت بصوت مبحوح:
"فاكر نفسك بقيت من الأكابر؟"
أحكمت لف الطرحة على وجهها ثم نظرت إليه:
"بُعدك."

تمتم الرجال وتنحنح بعضهم ومال أحدهم على اذن المتولي، فوجه نظره إليها من خلف نظارته الطبية وقال بصوت خشن:

"روحي يا خالة لن أقطع النخلة."

لكن صفية ظلت واقفة لا تعرف ماذا تفعل. لم تكن تنتظر مثل هذا الرد. كانت تريد أن تبعث زينب مرة أخرى. نار قلبها تمور، ولم تتزحزح من مكانها حتى سمعته يكرر الكلام بصوت أكثر اعتدالاً:

"لن أقطع النخلة. روّحي يا خالة"

استدارت ومشت على حرف القناة قبل أن تنفجر في البكاء كما لو أن مسعاها لاستعادة زينب قد خاب. جاء موت البنت قويًا وجارحًا

t.me/qurssan

كما كان منذ عشرين عامًا. وفعلاً لم يَقطع النخلة وبقيت أمام الدار، على حدود أرض الجوافة، الشيء الوحيد الذي بقي من تلك السنوات البعيدة، إكرامًا لروح زينب.

كتابة قصة زينب

تَخرج ياسر ابن خالة زينب من قسم الفلسفة وعَمِلَ أستاذًا في الجامعة، ثم سافر إلى ليبيا ليعمل في جامعاتها. كان مجتهدًا وذكيًا وكتب أحيانًا قصصًا قصيرة نشرت في الدوريات الأدبية. حاول أكثر من مرة كتابة قصة زينب، لكنه لم يجد مدخلاً يُمكنه من استجلاء مشاعره تجاه ذلك الموت الذي ترك فيه حيرة لا يصل إلى عمقها، خاصة أنه كان صبيًا وقت مرض زينب، وسمع الأصوات الغريبة التي تصدر عنها واللغة التي تجري على لسانها في لحظات الجذب.

تجربته الأساسية، كانت مرافقته لأمه في رحلةٍ طقوسيةٍ لكي ترمي الضفائر في النيل. رؤيته لأول مرة لبحر النيل الواسع، العارم في جريانه، عَزَّزَ هذه الخبرة وجعلها مِحورية. يمكن أن نتحدث هنا عن لحظة وعي أو يقظة؛ انتباه مفارق دفع الحيرة أن تسكن أعماقه إلى الأبد.

كان يوم جُمعة صيفي تمتد فيه حقول القطن حولهما من كل اتجاه. يمشيان في طرق ضيقة ويعبران فوق قناطر خشبية قديمة فوق الترع. كل حوض له مجاله من الشجر: سنط، صفصاف، شعر البنت، كافور، جازورين، والمناطق التي ظهرت في أحلامه كثيرا بعد ذلك، هي

t.me/qurssan

المناطق المهجورة التي يمتد فيها البوص حتى نهاية البر.

رحلة منهكة، جَسمَ صمتها كل مشهد، وشعت حياة سرية من كل ساقية مهجورة والخرافة ترعة وعشة على رؤوس الغيطان. شكلت تفاصيل المشوار غُلالة أحاطت بالمشهد الأخير وحفرته عميقًا في الوجدان. لحظة فارقة لحظة إلقاء الضفائر في النهر، وحلقات الموج اللامعة تحيطها، ترحب بها وتحتضنها وتحملها بعيدًا. تَابع بقلبٍ مضطربٍ الضفائر تَتموجُ وتَسيلُ مع الماء تَغمُرها شمسُ الصباح ويجرفها التيارُ منحرفًا بها إلى عُمق النهر، تبتعدُ ببطءٍ وتمضي حتى تتلاشى لكنها لا تغيبُ كليًا عن النظر. كل هذا منحهُ يقين بأنه سوف يعود إلى الدار ويجد شعر زينب وقد عاد إليها غزيرًا ناعمًا ومضفورًا مثلما كان.

لم يمحُ كرُّ السنين القوة العاطفية لهذه اللحظة وراحت رموزها تتفتح في وجدانه كلما تقدم في حياته ودراسته. تأمل مرارًا العزلة التي عاناها مع أمه أثناء ممارستهما لطقس قديم يغصُ برجاءٍ غامض أن ينمو شعر زينت ويعود كل شيء إلى ما كان عليه. ومن المحتمل أن يكون اختياره لدراسة الفلسفة مرتكزًا على تلك اللحظة، يحدُوهُ الأمل أن يجد في تلك الدراسة أداوت تُساعده على فهم غموض تلك الرحلة الطقسية، وربما لنفس السبب الغامض توجه إلى كتابة القصص عندما لم تسعفه الطبيعة التقنية الجامدة لدراسة الفلسفة في بلادنا.

طوال الوقت ظلت رحلة رمي الضفائر في بحر النيل هي المدخل الذي يبدأ به كلما فكر في كتابة قصة زينب، لكنه يجد القلم وقد انحرف

t.me/qurssan

وحكى عن أثر العادات والتقاليد وعن أسرة فخر الدين وتزمتهم وجريهم وراء الأموال، ويتوه في التفاصيل، أو يتحول ما يكتبه إلى نص شعري يربط بين ما حدث وبين عادات فرعونية قديمة.

فَشل عدة مرات في كتابة تلك القصة التي اعتبرها المعيار لكونه كاتبًا إن تمكن من كتابتها بالكثافة التي عاشها سوف ينطلق إلى كتابة القصص والروايات وإن لم يتمكن من الأمر، فخلاص، لن يكون قادرًا على مزاولة الكتابة.

ظلت قصة زينب عصيةً عليه لسنوات طويلة، ومن ثم أخذت دراساته الفلسفية ومقالاته في الصحف والمجلات الأولوية، وفي النهاية غابت تحت رُكام الحياة، حتى عادت ذات ليلة بصدفةٍ غريبةٍ.

ذات يوم عاد من عمله مرهقًا، تَناول عشاءه وفَتح التليفزيون، وظل جالسًا يُدخن ويُتابع فيلم محامي الشيطان، حتى جاء ذلك المشهد: في إحدى المصحات النفسية تجلس الزوجة الشابة في غرفتها على مقعد، تهز جسدها إلى الأمام والخلف مستغرقة كليًا في الألم، يدخل الزوج ويحاول أن يتحدث معها، لكنها لا تسمع شيئًا. قالت إحدى زائراتها إنها جميلة ومن خلفها مدت الزائرة مرآة مستديرة لترى المريضة وجهها، بدا الوجه مرهقًا لكنه جميل. بعد لحظة تبدل الوجه في المرآة إلى وحش. خافت المرأة. حطمت المرآة على أرض الغرفة، وأغلقت على نفسها باب الغرفة بكرسي وأمسكت قطعة المرآة المكسورة. حاول الزوج أن يفتح الباب وكأنه يعرف ما سيحدث، لكنها سبقت الكل

t.me/qurssan

وغرست زجاج المرآة في رقبتها ثم جرتها لتكمل جز الرقبة.

كان المشهد مفزعًا. أدرك دلالته وفهم رموزه، وانبعث المعنى: لم تستطع أن تتحمل الذنب، لم تتحمل الفتنة، لم تقدر على حمل الدنس. العنف في المشهد أكبر من الدنس، عقاب ليس على قدر الجرم، مرعب، ومبالغ في عنفه.

بَعثَ هذا المشهد ذِكرى زينب، وتذكرها في حياتها العادية، ثم جاء المشهد الذي حكته أمه :كيف قامت في الفجر والدنيا تولد لكي تلحق الصباح في الجهة الأخرى من العالم، ورآها في صمتها وحزنها الشفاف تَشُقُ طريقها إلى البحر، وشعرُ بأنها كانت في حالة تُشبهُ الصلاة وهي ذاهبة لتلاقي مصيرها. تأكد أن العنف في الفيلم فج، عندما ركز ذهنه في مسيرة زينب صامتة وقد حسمت قرارها.

تلك المقارنة أعادت زينب مرة اخرى وشعرُ بأنه قد رأى مفتاح القصة. من فوره راح يكتب، بحميةٍ وحماس. لم يتوقف لحظة واحدة وترك أفكاره وكلماته تسيل على الورق، ثم بعد ذلك ينظر ماذا كتب.

في البداية حررتهُ المقارنة من الفكرة الساذجة التي ظلت حاجزًا، يمنعه من إدراك معنى القصة. لقد كان يظن أن التقاليد والجو الريفي المتزمت هو أساس مأساة زينب وبالتالي لم تكن النصوص التي كتبها لنفس القصة، غير صور مكررة لنصوص مشابهة في الستينيات تُحمل المجتمع – كتصور غامض- مسئولية تلك الحوادث، وهذه الفكرة التي كبلته قد محت عن زينب أجمل ما فيها، حبها لبراءتها ورغبتها في

t.me/qurssan

استعادة تلك البراءة، أليس هذا حنين إنساني قديم؟ أليست تلك هي أساس فكرة العقاب والتطهر من الخطايا؟ أليست أساس فكرة العالم الآخر؟ العودة إلى جنة ما قبل أكل التفاحة. واندهش من كون الحياة كلها بشقائها وملذاتها ناتجة عن اشتهاء رجل لقضم تفاحة.

حَرَّرَ مشهد انتحار الزوجة في فيلم محامي الشيطان زينب من سطوة الأفكار الراسخةِ واستعادت براءتها الأكثر نقاءً وعادت إلى ذاكرته بتأويلٍ جديدٍ صور من الماضي، وقد محى عنها الكآبة والحزن. لقد تحرر موتها، من كونه اضطرارًا وتكفيرًا عن ذنب ليكون نوعًا من الطقس لاستعادة البراءة، وكان اختيارها هو الأمر الصائب الذي تختاره روح لديها معرفة باطنية بأن النور يُشكل جوهر الروح. وفي مشوارها الفجري تَسامى موتها ليشكل رمزًا.

صدّق أستاذ الفلسفة أفكاره في أن زينب ذهبت إلى النهر لكي تستعيد نفسها التي ضاعت منها، ذهبت لتسلم زينت الحالية التي سكنتها كي تضيع في النهر وتتلقى الأخرى التي أضاعتها. وبالتالي لم تكن ذاهبة إلى الموت وإنما إلى الخلاص، لكي تتخلص من ثقل لا يُحتمل وتستعيد الخفة التي فقدتها، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا في النيل. مُطهر الأجساد من أدرانها.

الصفحات العشر التي كتبها في ذروة حماسه وتفسيره لرموز وعلامات هذا الموت، جعلت من ذلك المشوار الذي مشت فيه زينب إلى مصيرها طقسًا أكثر من كونه موتًا. إذا كان الأمر موتًا فلماذا انتظرت تسعة أشهر حتى تنهي حياتها؟ هل هو اليأس الذي أخذ نهايته، أم وعيها الذي كان

t.me/qurssan

يُضيءُ في الظلمة كلما مر الوقت، حتى رأت بوضوح أنه لا مجال لاستعادة نفسها الضائعة هنا على الأرض بل هناك في جوفِ النيل؟

لم تمت زينب موتًا مجردًا. لم تُمسك سِكينا وتَذبحُ نفسها. أو تَطفشُ من نخطاي مثلما فعلت كثيرات. بل سلمت نفسها إلى النهر. ولكي يؤكد فكرته اهتم بتفاصيل الموت، وتوقف عدة أيام حتى يجد حلاً لسؤال بسيط: هل ألقت بنفسها في النيل أم نزلت وشعرت بالماء يغمرُ ساقيها ثم بطنها ثم رأسها وشهقت أو تطلعت إلى السماء قبل أن يجرفها التيار؟.

كان الطقس يُنير هذا الموت. رَحَلتْ إلى أخوتها القديمات اللاتي نقَّاهن النيل من أسمائهن وملامحهن وأصبحن نسخًا مصفاة للجمال المبهر. رَحلت لتتحول هي نفسها إلى جِنيةُ صغيرة تخرج للناس في ظهيرات الصيف.

النص الذي كتبه في تلك الفورة العاطفية، ظل بين أوراقه فترة طويلة، لم يتمكن من النظر فيه. كان مكونًا من عشر صفحات. نصًا معقولاً لكنه كان متحيزًا يحاول أن ينتصر لموت البنت، أكثر منه تأملاً في تجربتها وحيرتها وعزلتها في خطيئتها، تقريبًا كان يَخصُ حيرته في فهم ما حدث لزينب أكثر منه تأملاً لمعاناتها وجُرحها. ولكي لا نظلمه كانت هناك فقرات طيبة ومشهد جميل عن رحلته مع أمه وسؤاله عن الشَعر الذي سيعمل فيه النيل حتى يجعله ينمو سريعًا في رأس زينب، لكنه في النهاية لم يكن عملاً مكتملاً كان مجرد محاولة لإقامة جنازة بالكلمات لبنت خالته.

t.me/qurssan

الصلاة على زينب

لم تكن زينب تحتاج إلى "نص" ابن خالتها ليقيم صلاة على روحها، فقد قامت سيدة من الأقارب بهذا الدور في أوانه.

الست خديجة عرفت خبر اختفاء زينب من أهل نخطاي الذين يزورنها في طنطا فتركت أحفادها في الشقة وعادت إلى البلد وبحثت مع من بحث عن البنت الغائبة حتى وجدوها عند القنطرة، وأدركت بفطرتها أن أهلها سوف يعاندون في دفنها. أهانها لسبب غامض موت البنت الطيبة، وشعرت بأن الشر سوف يغمر الأرض وأن يوم القيامة قريب، وقالت إن هؤلاء الرجال قلوبهم عمياء. كيف يغويهم تشبثهم بمكانتهم عن متاواةِ لحمهم؟ لن يحصدوا طيبًا في الحياة، ولن يَردُوا على جنة بعد الممات. كان مهينًا أشد درجات الإهانة أن يُحمل جسد البنت في الليل كالذبيحة على الحمير، لم يَهُن على أهلها تأجير سيارة لحمل البنت.

حملت طرحتها في يدها وتحركت إلى دار فخرالدين.

وصلت إلى جُرن الدار. كان الرجال الخمسة يجلسون مقرفصين على المصاطب. أبو زينب أخرج "الفَرد" من الخِزانة ورَفعهُ في الجو، كأنه يعلن أن أحدًا لا ينبغي أن يقترب من الجُرن. لم يكن لنا بنات، وما وجدوه عند القنطرة ليس لحمنا، وأطلقوا الكلاب الثلاثة الكبار السود على أطراف الجرن. اقتربت الست خديجة من الدار، قام رجل من فوق

t.me/qurssan

المصطبة يشير إليها بيده أن ترجع. أشار فخر الدين أن يبقى في مكانه قائلاً:

"دع بنت عمي تقول ما عندها؟"

قالت وهي تجلس على المصطبة بجوار ابن عمها:

"البنت كانت عيّانة لم تكن في وعيها"

لا يرد فخر الدين.

يزم شفتيه ويوجه نظره إلى ظلمات الجرن.

"حرام عليك يا فخر."

صوت تنفس خشن يغالب الغيظ:

أصبح صوتها أكثر لينًا:

"أنت الكبير يجب أن تلم لحمك"

خرج الصوت الخشن الغاضب مثل الشخير:

"ليس لحمي يا بنت عمي، العوج ليس لحمي."

ويبدو أن صوته كان عاليًا حتى إن الكلاب استجابت للصوت الغاضب فأخذت تنبح.

قامت وطرحتها في يدها وسمحت لنفسها أن تفتح منافذ للغضب وقالت بصوت مرتفع:

"لن ترد على جنة يا فخر الدين، عضمك لن يجد من يلمه."

قالت وهي تبتعد:

t.me/qurssan

"من تظنهم رجالًا يجلسون حولك، ينتظرون موتك حتى يمزقوا لحمك."

مَشت عكس اتجاه مجيئها، تخطت الدار التي يضيء مَدخلها لمبة صفيح موضوعة على العتبة ولا صوت يَصدُر من هناك كأنها قد هُجرت. عَبرت بين الدارين إلى قطعة أرض يستعملها فخر الدين لتخزين المحاصيل ومن هناك مشت بجانب قناة من خارج البلد لكي تصل إلى جامع سيدي عبدالعال.

طوال سيرها تتحدث بصوت كأن فخر الدين حاضرًا:

"البنت عيانه."

"أنا أقول لن ترى خيرًا في الدنيا وسوف يأكلون لحمك."

هذا الحوار الذي لم يسمعه فخرالدين وبنت عمه تعبر الممر بين دارين قد تحقق بعد ذلك بسنوات. فقد توقف المصنع بعد أن حرَّمت الحكومة تجريف الأرض، ومات الرجل الكبير وهو يشهق بعد شرب جرعة ماء. مات مخنوقًا، ودبت الخلافات بين الرجال الطماعين وقسموا الأرض وذهبت سطوتهم.

في فورة غضبها اتجهت إلى دار الشيخ محمود. كان قد صلى المغرب ويجلس مقرفصًا أمام الجامع وخاطبته مباشرة:

"من أدراك يا شيخ أن البنت موتت نفسها؟"

لم تنتظر إجابة:

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الـوطــن

t.me/qurssan

t.me/qurssan

كان يومًا شتويًا، قضاه "محمود الأنصاري" وحده في شقة أمه في طنطا. لا يريد أن يرى أحدًا أو يتحدث مع أحد. يريد أن يتلاشى في فضاء الشقة الخالية الساكنة. سمع رنين الجرس عدة مرات يتردد بإصرار في أركان الشقة ويتلاشى، وحفيف أقدام تنزل السلم. أعجبته فكرة أنه موجود ورنين الجرس -غير المجاب- يُعلن عدم وجوده. ساعدته فكرة التلاشي في فضاء الشقة التي وُلد وتربى فيها، أن يُغالب الخوف ويستعد لتنفيذ القرار الصعب بزيارة قبر أمه. فقد كان عليه أن يسافر إلى القاهرة في الغد، لاستلام أوراقه كمواطن إماراتي.

جلس في مواجهة النافذة المفتوحة طوال الليل، وعندما اشتد البرد، غطى جسده ببطانية، حتى لاحت في السماء بوادر الفجر. جهز حقيبته وأوراقه وأغلق الشقة، لكي يعود ويحملها مباشرة إلى محطة القطار. خرج من باب العمارة. تطلع إلى الشرفات النائمة وإلى الفضاء حوله. لا يصدق أنه لن يكون هنا الشهر القادم، ولا الذي يليه. ما الذي سيحدث لكل ما عاشه هنا، منذ ولادته حتى بلوغه الخامسة والعشرين من عمره؟

مشى بطول شارع المدارس حتى شارع المديرية بمواكبه المستريحة من صخب النهار. صعد مرتفع شارع عمر زعفان. عبر ساحة الجامع

t.me/qurssan

الأحمدي وسوق النحاس وشارع حلقة القطن القديمة. اتجه يمينًا إلى تل الحدادين في طريقه إلى نفق السكة الحديد.

بعد أن عبر كوبري الخادم بدأ الوجل. برودة سَرت في جسده، كأنه ذاهب لرؤية أمه حقيقةً. لم يكن اللون الرمادي للفجر قد أصبح ذلك الأزرق الشفاف الذي يوحي بالطمأنينة. السحب تَعلقت في الفضاء. صريرُ عجلات عربة كارو بعيدة. صمت كامل. عند الجامع، في أول المقابر، سَمِع صوتَ الريح.

عَرِفَ القبر بحاسةِ البصر. وجد الباب مفتوحًا. عَبرَ إلى الباحةِ. وَقَفَ بجوارِ الجِذعِ المعوج لشجرة سنط احتلت فروعها فضاء المقبرة. سمع صوتًا بعيدًا يقرأ القرآن. قَرأ الفاتحةُ بسرعةٍ، وعَادَ.

***

قَضى في القاهرة ثلاثة أشهر، قبل أن يغادر البلاد. أقنعَ نفسه، بأنه لاحاجة لزيارة أخرى لقبر أمه، وصَورَ الأمر على أنها ترقد في بيتها الجديد في الجهة الأخرى من نفس المدينة. قضى تلك الأيام منشغلاً بتجهيزاتِ السفر، ومراسلةِ الأب في الإمارات. كان الأبُ الخليجي قد غير اسمه عدة مرات، تاركًا أبناءً في مصر والعراق ولبنان وسوريا. أصبح توثيق هويته الجديدة، يعلو في أهميته على الخاطر الهش بأنه يجب أن يزور قبر أمه مرة أخرى، وبَرَّرَ لنفسه تَهربِه من تلك التجربة بأن ما يقوم به من تجهيزات أكثر أهمية من تلك الزيارة، ثم تخلص نهائيًا من

t.me/qurssan

الأمر وراح يسخرُ من مخاوفهِ، ويقول إن أفضل طريقة للعيش هي التي عاش بها أبوه حياته، متنقلاً من بلد إلى بلد، متزوجًا امرأة من هنا وامرأة من هناك.

***

بعد استقراره في أبو ظبي كان قادرًا على مواجهة أمور، تهرّب من مواجهتها أثناء عَيشهِ في مسقطِ رأسه. أصبح بعيدًا تفصله مسافات ونوع حياة مختلف، يمكنه أن يقول لنفسه بصراحة إنه خاف أن يزور قبرها مرة أخرى. خاف من اللحظة الخام التي لا يمكنه تحملها كلما تذكر وقوفه أمام القبر، يسمع ذلك الهمس الذي سرى في الجو، ويشعر بوشيش الآخرة يحوم حوله، ويرى الحياة وقد تحولت إلى فكرة خيالية تشبة صورة من فيلم رعب.

في بداية الأمر خُيل إليه، أن المدينة التي استقر فيها، خيالية؛ بسبب ضوء الشمس الساطع واللون الأبيض للبيوت واتساع الشوارع، وفي صمت تلك المدينة استيقظ ذنب صغير، كان مستعدًا لمواجهته، فقد أصبح بعيدًا الآن، لم يعد ينتمي إلى تلك الأرض؛ من فوقها ومن في جوفها.

عمل في مؤسسة وطنية للثقافة، وبدأ في رسم اللوحات، بحماس ورغبة في إخراج مواهبه، فكان يعمل فترات طويلة، في إعداد برامج للتليفزيون، والإعلان عن المعارض، والرسم، وذات ليلة وقد غفي في كرسيه أمام لوحة لم تكتمل، حلم بأنه يزور مقبرة فرعونية.

***

t.me/qurssan

الهواء يحمل رائحة حقول الذرة في الليل. ضوء أصفر للمبة الجاز القديمة أضاء المشاهد اللامتناهية على جدارن المقبرة. يسمع صوت أحذية وهمس، وصوت تراتيل. أراد أن يقول لرجل أجنبي وقور مثل أساتذة علم المصريات، له لحية تخللها الشيب، أن يتوقف عن الكلام ويُنصت، فهناك تراتيل تصدر من الجدران. في قلب الجدران بقايا معابد لم تُكتشف. لكن الأجنبي راح يتكلم عن عادات قديمة وعن مفتاح الحياة الذي كان مرسومًا في كل مكان.

أمام مشهد من الحياة اليومية لمجموعة من النساء تعجن وتخبز . أخذ الرجل الأجنبي يُعلق على الصورة . يمتدح الخطوط التي تلخص الجسد ورهافة الألوان وسطوة الموضوع على أي حس زخرفي.

ظل واقفًا مكانه يتأمل صور النساء، في حين سمع أصوات أقدام تبتعد. من جوف الصورة، كانت امرأة تعجن، ثم تنظر تجاهه، وتذُرُ عينيها لتتعرف عليه، ثم بدأت في الحركة. تركت طاجن العجين وفركت يدها من بقاياه ونزلت من الصورة واقتربت منه.

عَرفِها، وثبت في مكانه.

قالت وهي تشير إلى صدرها:

"أين ثديي أين ضيعته؟"

مدت كفها تجاهه:

"ألم أقل لك أن تدفنه؟"

قالت وهي تنظر حولها:

t.me/qurssan

"بحثت عنه هنا، في كل مكان، ولم أجده."

***

ضوء نيون خافت، مغبش يغمر طرقة المستشفى. ترتدي أمه جلباب العمليات الأخضر. تقرأ ما تحفظ من القرآن ثم أغمضت عينيها. تمددت على الترولي يحيط وجهها المستدير الشاحب شعر أسود كثيف.

استغرقت عملية استئصال الثدي ثلاث ساعات، قضاها في الطرقة، يلوم نفسه لأن قلبه خالٍ من أي مشاعر، لم يكن خائفًا ولم يتخيل أبدًا أنه لم يبق لها على وجه الأرض غير أيام معدودة. في نَظرِهِ، كانت تعمل عملية لوز وسوف تعود إلى حياتها. بعد العملية نقلوها إلى غرفتها وجاءت خالته.

نَادتهُ الممرضة وأعطته كيسًا بلاستيكيًا أسود فيه شيء رجراج كالجيلي.

قالت:

"سَّلمهُ إلى معمل التحاليل"

سأل مندهشًا:

"أي معمل؟"

"المعمل الذي أخذَ منها العينة الأولى."

حِيرتهُ جَعلت الممرضة تُوضح له:

t.me/qurssan

"المعمل الذي أُجرىَ لها التحاليل المبدئية"

أمسكَ الكيس وسَمِعَ أمُهُ تُناديه. تَوجه إلى غُرفتها. كانت تنظر إليه بثباتٍ وقد عَرِفت ما في الكيس.

"غسّله وادفنه."

كانت خالته تجلس جانب السرير. تدير ظهرها إلى البلكونة، أشارت إليه من ورائها أن ينزل. قبل أن يفتح باب الغرفة، سمعها تقول بحزم:

"ادفنه. سامع؟"

شمس العاشرة صباحًا من شهر نوفمبر في الشارع الضيق أمام المستشفى لوّن تلك اللحظة. استقل سيارة أجرة وقد وضع كيس البلاستيك الأسود بجواره، لايقدر على الاستيعاب بأن ما يرقد بجانبه على كنبة السيارة هو ثدي أمه.

كيف تَحملَ تلك اللحظة؟

***

يتمدد على كنبة أمام لوحة لم تكتمل في بلد آخر ومدينة أخرى وبيت آخر، يحاول أن يستعيد تلك اللحظة متجنبًا الألم، متحصنًا بالبعد والهدوء وبكأس من الكونياك. منظر الشوارع كان غريبًا. المدينة التي يألفها كَكَفِ يده، أخذت في تلك اللحظة وجهًا أخر، كأنها مكان غريب ينزله لأول مرة، يفصل بينه وبينها جدار شفاف.

t.me/qurssan

وصلت سيارة الأجرة إلى نهاية شارع المديرية. دخل عمارة قديمة، صعد سلمًا واسعًا مغمورًا بضوء فضي وفي يده الكيس. يدرك الآن ما يحمل، ويشعر بأنه يثقل كلما صعد درجة. تعجل الصعود حتى لا يجد نفسه في النهاية وقد عجز عن حمله. قبل أن يصل إلى المعمل، سمع صوت طفل يضحك خلف باب إحدى الشقق. لابد أنه رضع هو الآخر من ثدي أمه. هل سيقع في نفس الموقف عندما يكبر؟ وشعر بالشفقة على الولد الغافي الذي يضحك، يجهل ما ينتظره عندما يضطر ذات يوم أن يحمل الثدي الذي رضع منه.

جاءت الممرضة مرتدية ملابس ريفية. جلست على المكتب، واستلمت الكيس وأخذت البيانات.

يتذكر الآن نبرة الصوت المرتعشة وهو يُملي اسم أمه.

قبل أن يغادر العيادة سأل:

"ماذا ستفعلون به؟"

قالت الممرضة:

"سنأخذ منه عَينة."

"أخذتم عَينة قبل العملية"

"عينة أخرى للتأكد من نوع السرطان ولتحديد نوع العلاج."

"وبعد ذلك؟"

نظرت إليه مستوضحة ثم فهمت أنه يسأل عما يتبقى من الثدي:

"سيدخل الفرن"

t.me/qurssan

"الفرن؟"

"فرن الحرق."

أكملت:

"أجزاء الجسم لا يمكن تركها في صناديق الزبالة، تُحرق في أفران."

كانت مندهشة من جهله.

سأل مرة أخرى:

"ألن تدفنوه؟"

نظرت إليه متفهمة وقالت:

"الناس يدفن السيقان أو الأيدي المبتورة، لم أعرف أحدًا دفن الثدي."

***

عاد الحلم مرة أخرى وأخرى، بتنويعات مختلفة. ظلت المقبرة الفرعونية إحدى سماته، وفي كل مرة تسأل أمه نفس الأسئلة:

"ألم أقل لك أن تدفنه؟"

"موتي ناقص، أنت السبب".

"كيف أعمل معهم في الخبيز وزرع الأرض وأنا بلا ثدي؟"

"هل يرضيك هذا؟"

يحاول أن يسألها هل تعملون عندكم؟ هل عدتم مرة أخرى لزراعة الأرض؟ وكانت تسأل مرة أخرى:

t.me/qurssan

"كيف يمكن أن أموت وجسمي ناقص؟"

"كان لا بد أن تدفنه كما قلت لك".

ثم بدأت تطالبه أن يرجع ويبحث عن الثدي ويدفنه.

في الحلم يَقطع على نفسه وعدًا، أن يعود إلى المعمل ويطلب الثدي ويقيم له طقوس الدفن.

عندما يستيقظ يشعر بالخوف والذنب، لكنه ينسى.

بمرور الوقت ترسخت فكرة غامضة عن أن موت أمه ناقص. حِس خفي بالذنب يبرق في الداخل، يلمع في الظلام عندما تصمت انشغالاته. منذ ذلك الوقت بدأ يتصل بأصدقائه في مسقط رأسه لكي يقرأوا الفاتحة على قبر أمه، في لحظات سُكر عصبية، يصر أن يذهب أحد ما إلى القبر لكي يقرأ لها الفاتحة، يرجوهم أن يفعلوا ذلك من أجله.

***

رجع كثيرًا إلى مسقط رأسه. في كل مرة، يضع زيارة قبر أمه على رأس جدول الزيارة، لكن ذلك لم يتحقق ولا مرة واحدة. يعود أحيانًا في زيارات سريعة تستغرق عدة أيام. يقطع تلك المسافة من أبو ظبي إلى طنطا من أجل أن يمشي في صخب شارع البورصة قبل دخول المدارس، أو يسمع رنين جرس بائع الفول في أول يوم من رمضان، أو نداء بائع الروبابيكيا، أو لون الضوء على نافذة غرفته في شهر أبريل عندما كانت أمه تحبسه والعيال يلعبون "البلي" في الشارع. يبدو متلهفًا،

t.me/qurssan

كأنه نسى امرًا يجب أن يعثر عليه هنا ثم يعود مسرعًا. لاينام لمدة يومين، ولا يتوقف عن الحركة، في أرجاء المدينة ثم يسافر.

أحيانًا يعود متحمسًا، يدخل السينما برفقة أصدقاء الصبا. يحلق شعره عند حلاقه القديم. يقف خارج سور مدرسة الفاتح الابتدائية ينظر بتمعن إلى شجرة التوت في فناء المدرسة الخالي بعد انصراف التلاميذ. أحيانا تستبد به نوبات كرم فيترك نقودًا لكل أقاربه كأنه ملاك هبط من السماء ينثر البهجة في الأرض. لكنه في أغلب الزيارات يبدو غير مستريح، يبحث عن شيء لا يجده. الصور التي تترائى باهرة الجمال في البعد، لا تعطي نفس الانطباع عندما يعاينها على الأرض. فينتظر المفاجآت.

ذات يوم رأى مصادفة أحد أصحابه في المدرسة الإعدادية. أعاد بعث فترة منسية من صباه، وقضى معه عدة أيام في مشاوير للبحث عن الأعداد الناقصة من مجموعة تان تان. ينتظر اللحظات التي تفاجئه، وتمنحه إثارة أكبر مما منحته الصور التي دفعته إلى المجيء إلى مسقط رأسه.

يُقدّر الحوادث الصغيرة وما تحمله من خدع، ويَتمعن في مراميها الخفية. يقول بيقين العارفين إن عليه أن يُطيع هواه، فالصور التي تدفعه إلى المجيء، مجرد مُغريات من أجل لحظات أكثر فتنة لم تخطر على باله. مثلما حدث ذات يوم عندما سمع صوت الرعد واشتعلت السماء بالبرق، فاستعاد لمحة من طفولته بصحبة جده في بلدة صغيرة بالقرب من كفر الزيات. قام فورًا وارتدى ملابسه وسافر إلى قرية جده. نزل

t.me/qurssan

عند أقارب أمه، وقضى اليوم هناك رغم المطر الكثيف، وسأل الناس عن سيرة الشيخ عبدالجواد، وعاد مخضبًا بالعرق ورائحة الغيطان، وإحساسُ بأن الحياة مجرد قشرة من التبدل. عيناه لامعتان حائرتان كأنه على وشك أن يفقد عقله.

تلك الزيارات التي كان من الواجب أن تمنحه حسًا بحضور الماضي أعطته تأكيدًا على أن الماضي لا وجود له. يقول: كل شيء هش حتى الجنون. يجب عليه أن يصمد في وجه الصور المتحولة حتى لا يفقد عقله. يندهش من سخرية أصدقائه، فهم لا يرون مدى الألم الذي يشعر به من جراء هذه الفكرة. يقول إن فكرة التبدل مؤلمة مثل موت أمه أو وجع الكلى، لها حضور مادي مثل انشغالاتهم اليومية وحسابهم لمصروف الشهر، ويعود من حيث جاء، حزينًا لأنهم يرون أله مجرد ترف؛ حياة بلا التزامات وهوى غريب أن يحقق لحظات شعرية على الأرض.

***

ذات يوم عاد إلى مسقط رأسه في مهمة تخص عمله. سيرحل إلى بلطيم. متابعا خط سير ابن بطوطة، مُكلفا من قبل المؤسسة الثقافية التي يعمل بها. سيقوم برحلة موازية لرحلة الرحالة المغربي في شمال الدلتا. يسجل انطباعاته ويصُورُ المشاهد الحديثة للبلاد، لتكون مادة توضع على موقع المؤسسة على شبكة الإنترنت.

الشوارع خالية في الصباح الباكر. الورش خلف مكتب الصحة

t.me/qurssan

مغلقة. شجر الفيكس أمام كلية الآداب أصبح كثيفًا، مغبرًا. بوابة محطة السكة الحديد المواجهة لشارع طه الحكيم يخرج منها طلاب وموظفون، وبائعات تحملن المشنات. ميكروباصات كفر الشيخ تقف في طابور بجوار سور من الحديد يفصل الموقف عن الشارع.

يحمل معدات العمل: كاميرا حديثة، وكمبيوتر شخصي، وجهاز تسجيل. ينظر إلى كل شيء بدهشة، كأنه لم يعش هنا يومًا. رائحة الهواء بها لمسة من رائحة النباتات. يتوقف، ويشم. يقول لنفسه: رائحة ورد بلدي، ثم يسخر من أوهامه ويشم الهواء مرة أخرى: لاشيء. فراغ. هواء بلا رائحة.

ركب الميكروباص، مع طلبة معهد الخدمة الاجتماعية، وكلية الزراعة. جو الطلاب أثار مشاعر قديمة. منذ زمن بعيد كان يعيش هنا، في مثل سنهم، وقتها ظن أن الدنيا سوف تبقى هكذا إلى النهاية، لكنها تغيرت، بدون سبب تقريبًا، وهو الآن، يعيش نصف حياة نصف حلم. الأماكن والأشخاص حوله مجرد صور، ستتبدد أو هي في طريقها إلى التبدد. هناك في مدن الخليج الواسعة البيضاء، الحياة خالية من أي شيء، غير الأكل والنكاح وشراء الأشياء، هل عيشه هناك ترك له هذا الحس الهش بأن ما يعيشه مجرد صور؟ صعب أن يتخلص من ألم الإحساس الصوري بالحياة.

***

لاح اتساع غيطان البرسيم والقمح. شغل السائق الكاسيت. أحمد

t.me/qurssan

عدوية في أغنية "على كوبري عباس"، شعر بالتوتر والمرح. مازال هناك من يسمع عدوية. أصبح "كلاسيك". ابتسم لنفسه، وتذكر سنوات الجامعة في الثمانينيات عندما كان يصف هذه الأغاني بأنها مبتذلة، في مقابلها كان يحفظ أغاني فيروز. الآن يتأمل الأغنية بانتباه ويلاحظ النبرة اللامعة العذبة في صوت عدوية.

أخرج المسجل وشغله على وضع التسجيل.

تخيل أن الأغنية والوشيش والجو والروائح والملامس سوف يتركون أثرهم، أخاديد غير مرئية على السطح الحساس للشريط. الحياة تفعل بنا ذلك، تترك آثارها السرية في أعماقنا على هذا النحو. رفع المسجل لكي يتأكد من أن الشريط يدور ويسجل تلك اللحظة التي لن تتكرر أبدًا.

أوقفت السيارة لجنة من المرور. أطفأ السائق الأغاني ونزل من السيارة. ترك المسجل على وضع التسجيل. ذاكرة مفتوحة على الفراغ. سوف يحتفظ بصوت موتور السيارة وصوت الشباب في المقاعد الخلفية يتمازحون. سيحمل في جوفه تلك اللحظة ويمنحها الخلود. سينقلها معه هناك عندما يسافر. نظر إلى المسجل بامتنان. الصور لاتكفي لحفظ اللحظة، الصوت سوف يساعده على استحضار أجواء هذا الصباح، سوف يساعده في تفهم الروح التي يطاردها هنا، وتطارده هناك. لو يتمكن من استعادة الماضي بنفس الطريقة التي سوف يستعيد بها شريط التسجيل هذه اللحظة؟

t.me/qurssan

انطلقت السيارة مرة أخرى.

بيوت من المسلح، على جانبي الطريق. على الأسطح أطباق استقبال الإرسال ومن خلفها تلوح مئذنة. إعلانات على أسوار المدارس عن شركات تسفير العمالة إلى الخارج، وعلاج العقم، ومزارع الأرانب. مساحات خالية من الأرض، تكومت فيها برك، على سطح الماء اخضرار الطحالب. عربات تجرها حمير تحمل البرسيم. الهواء يحمل رائحة النباتات والروث.

نزل في كفر الشيخ. قرر أن يقطع الطريق إلى بلطيم في عربة نصف نقل. أصبح الطريق أكثر ضيقًا، على جانبيه أشجار كافور ربما يفوق عمرها مئة عام. المنظر مختلف عما اعتاده في قرى وسط الدلتا. حقول واسعة خالية من الزرع، تتكوم في وسطها تلال من جذور البنجر، من حين لآخر يرى فتاة أو مجموعة بنات يحملن نباتًا على رؤوسهن متجهات إلى تلك الكومات. يتابع صوت ماكينات الري يتباعد، والماء يلمع فضيًا مندفعًا إلى حفرة صغيرة.

الضباب يتموج على الطريق، يكوّن غلالة شفافة. السحب داكنة لا تترك تبدلاً في الضوء ولا أي علامة على أن الشمس قد تشرق. كلما مضى باتجاه الشمال تصبح الترع أكثر عمقًا وماؤها غائر. توقفت السيارة أكثر من مرة لكي تمر سيارات نقل كبيرة تحمل البنجر، تعب من ارتجاج السيارة وبدأ يشم رائحة الرطوبة والبلل الملحي في الهواء.

***

t.me/qurssan

وصل إلى بلطيم.

المطر بدأ رذاذًا. تجول في الشوارع وصوّر سوق المدينة، وبعض المباني الإدارية والطرق، والبيوت القديمة. أصبح كل شيء حيًا، في نظره، ابتداءً من ورقة شجر بجوار الرصيف تحركها الريح حتى المباني الحديثة، والنساء الذاهبات إلى السوق بالملابس الريفية. طلع على ربوة عالية، ليصور منظرًا عامًا.

المدينة ترقد هناك، بيوتها من الطوب الأحمر. هطل المطر. يقف بجانب سور من الحجارة. تطلع حوله. انتبه. ربوة تظهر في انحنائها شواهد القبور، تنحدر مع انحدارها وقد غسلها المطر. المقابر مدرجة ينمو فيها نبات الصبار بأنواع مختلفة. الألوان المتداخلة من الأخضر إلى الأصفر المحترق، النحاسي، والذهبي. وقف بجانب السور المطل على المقابر يتابع كثافة الصبار: "لم أر في حياتي نباتًا بهذا الجمال". وقع في أسر الصبار، انجذب إليه كأنه جاء هذا المشوار من أجل تصوير الصبار. الحجر عليه اخضرار الطحالب، ومع ذلك احتفظ بدرجات لون الجبل الذي جاء منه. في النهاية أفاق من غفوته، وقال لنفسه خائفًا: إنها مقابر.

حاول أن يبدد اللحظة: ماذا تخشى؟ هل تخاف الموت؟ رد متعبًا: المقابر ليست مكانا للتصوير. وقف لحظة ثم نزل مسرعًا خائفًا أن تُبدد تلك الخواطر حماسة اليوم.

شَغَلَ نفسه بتصوير حلقة السمك، وسأل الناس عن المدينة القديمة. أنصت إلى كل كلمة. دقق في التفاصيل. وفي النهاية رتب معداته

t.me/qurssan

وتوجه إلى موقف السيارات. وضع حقائبه خلف المقعد الأمامي للسائق. لا يزال يفكر في المقابر، وكيف تطلع له من حيث لا يحتسب. هذه المقابر بها لمسة مريحة ليست مثل مقابر مدينتي التي بنوها على شكل مدينة، يخاف المرء دخولها. تذكر في تلك اللحظة وعده الذي لم ينفذه طوال تلك السنين : أن يزور قبر أمه.

فتح الكاسيت على وضع التسجيل وأغمض عينيه. ترك الأصوات تسري في الجو، كأنها سترسب في كيانه، مثلما ترسب في جوف المسجل، ألن يكتشفوا ذات يوم أجهزة تسجل لنا ذبذبات وتوترات الروح، وتحتفظ لنا بسجل لأفكارنا وانطباعاتنا؟

***

هذه المرة لا بد أن يعود إلى مسقط رأسه، ليس بسبب مرضه الذي أوجب حضوره لإجراء فحوصات، بل لأنه أخيرًا عليه أن يَفي بالعهد ويزور قبر أمه. مُتعب تُطارده فكرة الموت، بعد جراحةٍ خطيرةٍ. عاد بتصميم أن يزور القبر. بعدها سوف يستعيد جسده تماسكه في الشقة التي تَربى فيها، سوف يستريح هناك وينام نومًا عميقًا. فكر على هذا النحو في الأيام الماضية منتظرًا ميعاد السفر.

***

سيارة الأجرة تسير به في شوارع القاهرة. يركز بصره على أضواء المحلات التي تلمع في طريق المطار، متلافيًا الحديث مع السائق. يراقب

t.me/qurssan

جسده المتعب، ومسار الألم في جنبه. وهلام أفكار يطفو مثل البخار.

خرجت السيارة إلى الطريق الزراعي.

سأله السائق:

"جئت تقضي العيد هنا؟"

"نعم."

"من الإمارات؟"

قال باقتضاب مضللاً السائق:

"من الكويت."

قال السائق:

"ما لا أفهمه لماذا يساعد الكويت الأمريكان على شعب العراق؟"

ثم راح يتحدث عن متابعته لمحاكمة صدام التي تُبث على قناة الجزيرة: "صدام بطل. يقف ثابتًا مازال. صلابة الرجال". صوت السائق يتضاعف في أذنيه كالصدى: "صدام، صدام، صدام". تاه في غلالة من الوهن والنعاس. رغب أن يصمت السائق حتى يستطيع التركيز في المشهد الذي تراءى له: في عز الحر، في وسط الغيط، الناس تحتمي بظل الشجر إلا رجلاً يربط رأسه بمنديل يقف في وسط أرضه يميل ينزع شيئًا، ويميل مرة أخرى ويحمل قطعة من الطين يفركها بيده، بعيدًا، كأنه يعيش في لحظة خالية من الزمن. قال جده وهو يقبض على كفه الصغيرة ويشير إلى الرجل: "فيه شيء لله".

كان جده يحب الأولياء. يرتدي الطربوش، ويحدثه عن كراماتهم.

t.me/qurssan

الرجل الطيب ـكما كانت أمه تسميهـ "يؤمن بالولاية". كان يظن أنه مُنْسب إلى الرسول. ظل يبحث عن شجرة عائلته. لم يستطع أن يتخطى الجد الخامس. ذهب إلى مشايخ في بلاد بعيدة. أقام ذات مرة في رشيد. جدوده كانوا تجارًا قدامى، يسافرون إلى الشام. سافر إلى صحراء مريوط، لكنه لم يعثر على شيء.

"عاش في الصحراء من أجل أن يثبت الولاية".

قالت أمه وهي تتجه إلى بلكونة المطبخ.

كان يوم جمعة. صوتها يأتي من هناك:

"يا نهار؟ الرمل ملأ البلكونة".

عادت إلى الصالة. حملت المقشة والجاروف.

قالت تُحدث نفسها:

"من أين يجيء هذا التراب الناعم؟".

كان يُذاكر دروسه على الكنبة بعد الحمام لابسًا البيجامة النظيفة. قال بلهجة العارف:

"من الصحراء، تحمله الريح الغربية وهي خماسين لأنها تستمر خمسين يومًا".

قالت مندهشة:

"من الصحراء؟!"

جلست بجانبه على طرف الكنبة وقالت:

"جدك قضى في وادي النطرون بالقرب من أديرة الرهبان خمسين يومًا حتى يحصل على نَسَبهُ إلى الرسول لكنه عاد مغمومًا، لم يقل لأحد

t.me/qurssan

ماذا وجد في سيرة العائلة. قال لهم: خذوني إلى البلد. مات هناك. قالوا إن قبره أضاء ليلة النصف من شعبان."

سكتت وقالت بدهشة:

"لكنه مات مغمومًا."

تركت المقشة من يدها وبكت.

لا يعرف إن كانت أمه قد سامحت أباها لأنه زوّجها من رجل غريب، جاء إلى طنطا وأغراه بالنقود وبأمر كان من الصعب أن يقاومه: سيبحث له في السجلات هناك في بلاده، عن أصول عائلته. ظل الرجل يتردد على البيت عامين والجد يصبر نفسه أن الرجل العربي سوف يساعده في الوصول إلى النسب الصحيح. لكن العربي رحل ذات يوم وترك ورقة الطلاق ولم يره الجد بعد ذلك.

كانت تُعصبُ رأسها بمنديل من القماش المخطط، وتزره وتشكو من صداع دائم. لاحظ أن ذلك كان يحدث عندما تتذكر الجد.

***

قال السائق إن صدام فقد الكثير من وزنه، لكنه ما زال يحتفظ بالهيبة فقد شخط في القاضي في آخر جلسة. لكن الأمر المحزن أنه كان يهز الدنيا، والآن يقف بسترة واسعة مثل الشحاتين وذقنه البيضاء النابتة تجعل المرء يشفق عليه.

لا يكف السائق على فترات متفرقة عن ذكر صدام مثلما كان

t.me/qurssan

خيال أمه يلف ويدور حتى يلمس سيرة جده ثم تُعصب رأسها بمنديل أسود عصبةً شديدة وترقدُ على السرير قائلة إنها تسمع دق شواكيش في راسها.

***

الحقول كثيفة الظلمة، تلمع هناك مآذن على البعد. الهواء بارد. طلب من السائق أن يفتح النافذة. جاءت رائحة نباتات مصحوبة برائحة الأرض. شعر بجسده يعود إلى يقظته.

"على جنب يا أسطى أريد أن افك الماء."

نزل من السيارة. مشى إلى حقل خالٍ، يشم رائحة الهواء. يحمل طيف حيوات لم يعشها. شم مرة أخرى بعمق. طيف من رائحة الطين، عنده هوى برائحة الطين. يشعر بأنه يفتح مسامه. هناك، في بلدة جده، تصادف أن أمطرت أول أمطار العام. فاحت رائحة الأرض، وقف جده في منتصف طريق ضيق بين الغيطان وقال له:

"شم رائحة الأرض."

ثم أخذ يشد على كفه الصغير ويكمل:

"التراب الذي تذوب فيه الأجساد ومنه يخرج الزرع."

التداعيات تتوقف عند جده، كأنها تبحث عنه.

فتح أزرار البنطلون وحاول أن يستخلص الماء من جسده.

t.me/qurssan

تائهًا مغمورًا في رائحة الأرض. الحقول خالية. انتهى موسم الأرز، والذرة. الآن برسيم وقمح. الشتاء له طعم آخر في البلد، المنقد والدفء والحكايات، جده لايكف عن الحكايات.

سمع همسًا يشبه قراءة البسملة. ضباب يصعد من الأرض. يشكل أشكالاً غامضة. شعر بدمدمة وهمس في الفضاء. أطياف تأتي من بعيد كأنها في موكب. رفع عينيه. هناك مقام وليّ في قلب الغيطان. قبة المقام تبرق في الظلام. في أعلى نقطة منها لمبة متوهجة الضوء، مع البعد ظهرت مثل ثدي مضيء، واللمبة حلمته. في تلك اللحظة سمع صوتها:

"أين ضيعته؟ لابد أن تجده وتدفنه."

الصوت واضح، والظلام المحيط به يشبه الكيس الأسود الذي رقد فيه الثدي.

سمع، من بعيد، من عالم آخر، صوت السائق يناديه.

"ياشيخ، ياشيخ العرب".

تطلع حوله، زرر البنطلون وعاد ببطء إلى السيارة.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

رياح الخماسين

t.me/qurssan

t.me/qurssan

كان نجيب البيلي يلعب الكرة في الحارة، عرقانًا وقد أحرز هدفًا، عندما نادته جدته:

"ياواد يانجيب، قل لأم عادل هاتي بطرمان سكر."

وقف نجيب أمام شباك البيت يحاول استيعاب لفظ "بطرمان". لم تكن أول مرة يسمع اللفظ، لكنها المرة الأولى التي يعي غرابته، ومن يومها وهو ينطق "بطرمان" كما سمعه من جدته. بعد ذلك صُنفَ الناس إلى نوعين: ناس تنطق "بطرمان"، وهم الأصُلاء أولاد البلد وناس تنطق "برطمان" وهم الطبقات الأخرى. كلمة برطمان تُوحي لنجيب ببرطمان مربى الفروالة والتين، وهي أنواع من الحلوى لم يعرفها إلا في العراق عندما سافر بعد أن حصل على بكالوريوس التجارة في منتصف الثمانينيات.

زميله ورفيق الصبا ورحلة العراق "حسين إدريس" يضحك من طريقة نطقه للفظ البرطمان، وعندما يحب أن يُمازحه يسألهُ عن أصل الكلمة كأنه لايعرف. يتجاهل نجيب الأمر كأنه هو الآخر لم يحكِ الحكاية عشرات المرات، ويحكي مرة أخرى عن ماتش التحدي بين حارتهم والحارة المجاورة والهدف الذي أحرزه، وظهور كلمة "البطرمان"

t.me/qurssan

وقت فرحته بإحراز هدف الفوز.

يقول:

"من يوم ما سمعتها من ستِي والكلمة سكَنتْ لساني."

في كل مرة تأتي سيرة جدته، ينطلق نجيب ليعدد أفضالها عليه. تقريبًا هي التي علمته كل شيء، من أول تنقية الأرز، وتقطيف الملوخية وتقشير البسلة وعمل الأرز حباية وحباية، والمضغ ببطء والتأني في كل عمل يقوم به.

ذات يوم وهو يتحدث عن جدته بَرقت الفكرة في ذهنه، وقال لـ حسين: "تعرف؟ لولا ستِي ما تعلمتُ صيانة الكمبيوتر"، ثم ترحم على جدته وتحسر على الزمن الماضي، في بداية التسعينيات، عندما كان يُنزلُ نسخة الويندوز بخمسة وثلاثين جنيهًا، الآن أي عيل صغير يمكن أن يُسطّب نسخة ويندوز.

***

يشعر نجيب بالفخر بما أنجز في حياته، وبالأخص مقاومته لوالده صاحب ورشة تصليح الكاوتش، البخيل، الذي أراد أن يُعطل مَسيرة تعليمه:"كمْ ستَكسب لو أخَذتَ الشهادة وتَوظفتَ في الحكومة؟ الورشة تَفتحُ لكَ بيتًا وتَجعلُك حُرَّ نفسك." حَاولَ نجيب كثيرًا أن يُقنعه، بأن الأمر ليس " كم" بل "مقام" تمنحه لك الشهادة، لكنه كان زمن الصنايعية، الكَسيبة، ونُدرتهم عندما رحلوا إلى البلاد العربية.

t.me/qurssan

مصدر فخر نجيب انه أصر على التعليم، أراد وحقق ما أراد، رغم عراقيل أبيه الذي رفض أن يعطيه مصاريف أو يشتري له ملابس جديدة عندما دخل كلية التجارة. وعندما تجيء السيرة يحكي باعتزاز، كيف قضى أول عام في الكلية بقميص وبنطلون واحد، و"شرز" قديم، ولولا سفره إلى العراق في صيف ١٩٨١ ما استطاع أن يرتدي الجينز مثل زملائه، وفي النهاية يتذكر جدته ويرى تعاليمها سبب صموده في الحياة، وأساس ما وصل إليه.

في العراق اختل الميزان قليلاً، فقد غدا صوت الجدة بعيدًا، صعب أن يقطع كل تلك المسافة ويَصلهُ في بغداد، وقتها بدت الحياة في مصر نائية ورمادية. الناس هناك كأنهم أشباح، أو نصف موتى، تأثيرهم ضعيف. هنا في بغداد تَعرفَ على كسب الفلوس وحب النساء، تَعرفَ على نفسه في الضوء القوي لتلك المدينة الصاخبة وعَرف متعة الحياة. سنوات العراق تشبه بريق الذهب في رحلته: "عندما تعمل وتكسب وتشعر بالحرية فإن روحك تتفتح، أما في بلدك فالعيش ضيق، هنا أهلك وأهل حتك وأصحابك ومعارفك والقوانين غير المرئية للأخلاق العامة. لا يمكن أن تفعل شيئًا خارج المألوف، وبالتالي سيكون من الصعب أن تكتشف نفسك."

***

مضت بعيدًا هذه الأيام، والآن يعمل نجيب مديرًا لمخازن الإدراة التعليمية، أحيانًا يُفيقُ من استغراقه في العمل على صورة أو رائحة أو لمسة من حياته في بغداد. يفكر في تلك المدينة البعيدة التي تَخربتْ،

t.me/qurssan

كأنها جنة مفقودة، ورغم حبه لـ صدام غير أنه حاقد عليه؛ لأنه أنهى الحلم وعاد به إلى حياةٍ لها لون التراب ورائحته، ثم يتذكر حزنه عندما جاءه، هناك، خبر موت جدته وكيف مرض بدور برد شديد، وشعر بأنه فقد سنده في الحياة، لكنه قام من المرض وقد أحس بأن إصرارها قد مَرقَ في جسده واستقر في صُلب عَزيمتهُ.

***

في منتصف الأسبوع، يزور "حسين إدريس" في مكتب الكمبيوتر في شارع عزيز فهمي، يُمازحه حسين ويطلب منه أن يترك الحكومة ويَعمل معهُ في المكتب، لكن نجيب يقول بقناعةٍ: "لا ياعمْ أخذتُ نصيبي، وحياتي فُل الفُل." ويحكي عن ابنته التي دخلت قسم اللغة الفرنسية في كلية الآداب وعن حبه لنطقها اللغة الأجنبية. في تلك اللحظة يشعر بأنه انجز مشروع حياته، فرح يسيل في القلب، عندما تتحدث البنت مع أخيها الصغير بالفرنسية.

هذه اللقاءات لا تنتهي دون الحديث عن "البطرمان"، الذي يُخزن فيه نجيب حبوب الفياجرا، ويخفيه في عشة الفراخ.

يضحك حسين:

"ألم تجد مكانًا في بيتك كله إلا عشة الفراخ؟"

ويُثقل في المزاح أحيانًا:

"ماذا ستفعل لو طَلعتْ زوجتك لتضع الأكل للفراخ وعَثرتْ على

t.me/qurssan

البطرمان؟"

يقول نجيب بجدية:

"لا يمكن."

ينتظر حسين مبتسمًا؛ ففي لحظات التبرير يأتي كلام نجيب المنظم كأنما تصحو جدته في كيانه:

"أولاً، أكل الفراخ من اختصاصي، ثانيًا، زوجتي لن تعرف بطرمان الفياجرا من بطرمان دواء الفراخ، ثم ثالثًا، مكانهُ في الشباك، بعيدًا عن مجال نظرها."

يقول حسين:

"وماذا لو فَتحَ الهواء ضلفة الشباك، وسقط البطرمان."

يُجاريه نجيب ويأخذ سَمتَ المعلم :

"إن كنت جاهل أُعلمك."

ينتظر حسين مبتسمًا:

"اسمع ياسيدي. هذه البلاد يسقط عليها أقل أمطار الأرض، ولا تضربها العواصف إلا نادر النادر، هذه البلاد أنعم الله عليها بالسكينة، فهمت يا بجم؟"

يختم نجيب كلامه ضاحكًا، سعيدًا بهزيمة صديقه في كل نقاش.

***

t.me/qurssan

مساء الخميس يلتقيان في حتتهما القديمة، بعد أن يزور كل منهما ما تبقى من أهله. عادة قديمة اتفقا عليها، أو نوع مستتر من الونس صاناه بدقة. يقضيان بعض الوقت في المقهى المقابل لمصلحة المساحة في تقاطع شارع الفاتح. دائما يتطرق حديثهما إلى أيام العراق. مر الآن ما يقرب من عشرين عامًا، منذ عادا من هناك في أغسطس عام ١٩٩٠. كانا ينويان أن يستقرا في بغداد ويستوردا قطع غيار الأجهزة الكهربائية ويعيشان هناك إلى نهاية العمر، لكن الأحوال لا تستقر، الدنيا تقلب قلبتها التي لاتخطر على البال، كأنما الأرض لازالت موضوعة على قرن الثور.

تلك لحظة غامضة، لم يستطع نجيب أن يتخلص من إحساسه المنغص بها. كثيرًا ما يحلم بالطابور الطويل للسيارات تشق الطريق إلى ميناء العقبة، يجد هذا المشهد يهل عليه بدون مناسبة، وهو جالس في الميكروباص، أو بعد ختام صلاة العشاء، أو عندما يستغرق في عمله في المخازن.

السيارات تسير في طابور لا ينتهي من حدود العراق حتى عمان. كل من كان في الكويت لم يتمكن من العودة إلى مصر إلا عبر العراق. رحلة فظيعة تشبه يوم القيامة، رأى الناس عرايا من الأحلام مُتعبون لايعرفون إلى أين يذهبون، ضاقت بهم الأرض. كان الوقوف في الصحراء للتبول أو الأكل، أو الصلاة له حس ثقيل بأنهم تائهون في صحراء بلا نهاية. انتهت الحياة، لم يكن لهم قدرة على المخاطرة والعودة إلى العراق، ولا يرغبون في العودة إلى مصر. التلال البعيدة في الصحراء

t.me/qurssan

لُشع تجاويفها بلون وردي والأعشاب الصحراوية ساكنة، والحيرة تُلبش الجسد، بكاء الأطفال الرضع على كتف الأمهات، وشباب من الصعيد بمشنات كبيرة ونساء عجائز استقرت حياتهن في الكويت منذ زمن بعيد، وتلك الليلة الصاخبة التي قضوها في العقبة قبل أن يعبروا إلى نويبع، مشاهد تُعيد إليه حزنًا لا يبلى.

وما جعل هذه المشاهد لها هذا التأثير الدرامي أنه عاد إلى ورشة الكاوتش التي هرب منها، كأنها قدره، وارتبكت حياته بعدما فشل في أن يجد وظيفة حكومية، وقتها كان خائفًا من تبدد مدخراته.

أصبح في الثلاثين، بلا زواج، بلا مستقبل، يلحم الكاوتش، ويتكلم عن صدام الغبي. في الليل يجلس بالساعات على كرسي أمام الورشة، بعد أن يعود أبيه إلى البيت في المغرب. في تلك الساعات تأمل حياته وحزن مرة أخرى على جدته، لو كانت هنا الآن لساعدته. ربما ساعدته ذكراها على استعادة عزيمته وتقرير مصيره: لن يترك الفلوس تفقد قيمتها في البنك، سيشتري نصف قيراط، ويبني بيتًا، في طريق "شوبر"، ويعيش كأنه لم يتعلم ولم يحلم بشركة صيانة أجهزة كهربائية في بغداد، ولم يحلم أن يسافر إلى الصين يستورد قطع الغيار، سيبني بيتًا ويعيش.

ذات يوم مرَّ عليه حسين في الورشة، وشَخطَ فيه:

"مَالكْ قاعد مثل الولايا، قَابِلني الصُبح في المحافظة، هناك دَورات كمبيوتر سَنأخذُ دَورة ونَتعلم الصيانة."

t.me/qurssan

عمل فترة قصيرة في صيانة أجهزة الكمبيوتر ثم تقدم في مسابقة أعلنت عنها وزارة التربية والتعليم. جاء الفرج أخيرًا، فقد حصل على وظيفة في حسابات المديرية ثم نُقل إلى المخازن. مرة أخرى انقلب الحال، وصلّحت الدنيا غلطتها معه، وبدأت تميل ناحيته.

تتراءى له تلك التقلبات كأنها حدثت في زمن آخر، لكن لحظة العودة من العراق تُخيفه. لقد تبدد حلم الحياة في ثانية، فكيف يطمئن المرء بعد ذلك إلى مسار الحوادث؟ حاول مرارًا أن يمتص لحظة الرعب واهتزاز الحياة، لكنه ظل قلقًا. كان أول قرار اتخذه بعد التوظف أن يبني الدور الأول محلات والثاني شقة صغيرة، وجهزها، وشرع في الزواج، ورغم ذلك وبعد كل تلك السنين، تظل لحظة العودة من بغداد مهددة على نحو ما، وفي جوفها يكمن سر لا يتمكن من فضه.

***

في لقاءات الخميس في المقهى مع حسين إدريس، لابد أن تُعرج السيرة على حياتهما في العراق، ويتطور الكلام إلى تذكر الظروف التي أعادتهما، ثم يخوضان في نقاش أصبح بمرور الوقت معتادًا وشيقًا، يبدأ دون وعي ويتقدم بمزاح. في كل مرة يبحثان عن السبب في ضياع حياتهما: صدام أم تآمر الغرب عليه. حلمهما المهدر هناك، لازال ينضح أساه في ليالي الخميس بعد كل تلك السنين.

كان موقفهما غريبًا، في تلك النقاشات التي استمرت كإيقاع للقاءاتهما. لم يكن هناك رأي ثابت لأي منهما. موقفهما يتغير في كل

t.me/qurssan

مرة؛ فإن بدأ أحدهما الهجوم على صدام يُدافع الآخر عنه، ويصفه بأنه بطل، وأنه مهما عمل فإن الغرب كان سيضرب العراق. ويرى الآخر أنه كان يمكن أن يُفوتُ الفرصة على الغرب بالدهاء، ولا ينساق وراء المغامرات، ثم يوافقان على أن الترصد موجود وأنت لا يمكنك أن تقاوم العالم وحدك.

الأسى الذى يدور به النقاش يَكشفُ عن أنهما لم يتمكنا من بلورة رأي حول السبب الذي أعادهما إلى هنا، وصمتهما الجاد الحزين في قلب النقاش تجسيد لحيرة السؤال الأزلي: أين الحقيقة؟ ما حقيقة ما حدث فعلاً؟ هل كان صدام يريد حقًا أن يَدخل الكويت أم أنه كان مجرد قطعة شطرنج في دور تُحركه القوى الكبرى في العالم؟

الحيرةُ بالنسبة لهما شكل من أشكال الحزن على حلمهما الضائع، والأمر كله يَغصُ بالغموض، ورغم بُعده الآن إلا أنه يظل تِيمة من تيمات لقائهما؛ حنين إلى زمن مضى له طعم الرثاء، كأنما يرثيان الشخصين اللذين كان من الممكن أن يكونا لو لم يدخل صدام الكويت.

قبل أن يغادرا القهوة في الثانية عشرة مساءً، يأتي حديث ليلة الخميس ويسأل حسين:

"عاوز فياجرا؟"

يرد نجيب:

"البحر يحب الزيادة."

يوم الخميس الماضي طلب نجيب قرص فياجرا، فسأله حسين مندهشًا:

t.me/qurssan

"والبطرمان؟"

"حصل ما تَمنيتهُ يا فقري."

ضحك حسين:

"بجد؟"

قال نجيب:

"عاصفة امبارح فَتحتْ الضلفة. دخلتُ العشة لقيت الفراخ بتنقر في حبوب الفياجرا."

ضحك حسين حتى دمعت عيناه، وقال:

"هذه آخرة تربية الفراخ."

***

بدأ نجيب تربية الفراخ بشكل مباغت، بعد أزمة كادت أن تعصف بحياته، عندما ورثت زوجته "ثُمن" بيت في شارع الويشي، وأحب أن يبني الدور الثاني، لكنها أصرت أن تشتري مصاغًا. اكتشف، بخيبة، الصورة الخيالية التي كونها لزوجته. كان يظن أنه تزوج امرأة حياته؛ مطيعة، طيبة، ولا شيء في حياتها غير بيتها، صحيح تعليمها أقل منه لكنها تعمل موظفة في مجلس المدينة وهو يحبها، وانجبت له بنتين وولدًا. في ذلك اليوم أخَرجتْ ما كان مخفيًا في قلبها:

"أخذتَني من الدار للنار وعيشتني في غلب من يوم ما دخلت بيتك، لم تشتر لي فستانًا، ولا حتى إيشارب. تأخذ مرتبي ولا تترك لي غير أجرة

t.me/qurssan

السرفيس، حتى كيس المناديل لا أتمكن من شرائه. والآن تريد أن تأخذ نصيبي من بيت أبي؟"

انكشف ما لم يكن ظاهرًا، وشعر بأن الود مجرد قشرة، وأن حياته كلها بلا معنى: الرحلة الطويلة في العراق والإفلات من سطوة أبيه ومحل الكاوتش، والتوظف وبناء بيت. بدد هذا الانفجار الأوهام وقيمة الكفاح، كان يظن أنهما شخص واحد، وأن كفاحه لها، لكنها فاجأته بأنها شيء مختلف عنه. في غمرة الغضب، كاد أن يفض الأمر برمته، ويطلقها وينتهي، لكن الأولاد، حياته، كفاحه، لايمكن أن يفرط فيما بناه بسهولة. وغرق في حزن لم تمحه مواساة حسين إدريس ومحاولة إقناعه بأن كل النساء على هذه الشاكلة. لأول مرة يرضخ نجيب، حين مادت من تحته الأرض مرة أخرى، ويعيش تلك الحالة المنغصة التي عانى منها يوم الرجوع من العراق، لكن هذه المرة بحس مختلف فيه قدر أكبر من المرارة.

ذات يوم كان عائدًا من الشغل في الظهيرة. نزل عند موقف الميكروباص. عَبر الترعة وشجرة الصفصاف الجافة أمام محل الاتصالات. رأى بائع الفراخ يحمل القفص على مؤخرة الدراجة، كأنه نفس الرجل النحيل الذي كانت تشتري منه جدته الفراخ. توقف نجيب وشعر برغبة في شراء عشرة كتاكيت. قلق خافت ناوشه في تلك اللحظة، أسكته بحسبة بسيطة للنقود، ثم قال لنفسه مقاومًا التردد: معي فلوس، وحتى لو ماتوا جميعًا، كأنني اشتريت قميصًا لم ألبسه، وحضر طيف جدته يستحثه لينفذ الأمر.

t.me/qurssan

اشترى، بعد ذلك، لوازم تربية الكتاكيت: القفص الجريد والكرتونة والأكل واللمبة الزجاج المعمرة بالجاز، وفي ركن المحل المغلق الذي ينتظر سن المعاش ليفتحه بقالة، أو أي مشروع، ربى نجيب أول طرحة وتطورت علاقته بالفراخ وأصبحت قوية لا يمكن تفتيتها.

أنقذته تربية الفراخ من أحزانه. تلك الفترة أعادت انتباهه لحياته ودفعته أن يبني عشة فوق السطوح ويسقفها ويشغل نفسه بالأمر. سمح لزوجته أن تشتري الذهب. مرت العاصفة وتبدد حزنه مع تحول الكتاكيت إلى ديوك ودجاجات. في الشتاء كان يقضي بعض الوقت يراقبهم، يلعبون وينقرون الطعام من فوق الكرتونة في ضوء لمبة الجاز الباهت، انفتح مجال للتأمل، وتعايش مع انكشاف قلب زوجته. أول دجاجة يأكلها كان لها طعم آخر. راوغ حزنه من أن رحلة العمر لم يكن لها عائد، وراح يُعيد الاعتبار لحياته وسيرته مع نجاح تربيته للفراخ. عادت إليه الثقة، ومعها الشعور الطيب بأنه قادر على تحدي الظروف. في تلك الفترة حدث بينه وبين زوجته جفاف في العلاقة، فأعاد إليه، اكتشاف الفياجرا، علاقة كانت في طريقها إلى الذبول.

***

تُذكّره الفياجرا بالنقاش الذي دار طويلاً في إدارة المخازن نهاية التسعينيات حول التليفون المحمول، وهل هو مفيد أم ضار. مناقشات تشبه المناظرات المدرسية، لكن الفياجرا التي عرفها عن طريق عمر ابن خاله نهاية التسعينيات كان لها حس مأساوي. كان عمر يدير محلاً للألبان في منطقة راقية من المدينة ويعاشر امرأة متزوجة، شهوانية،

t.me/qurssan

فكان يتصل بموردي الأدوية ليحصل على القرص الأمريكي بأربعين جنيهًا وقتها. كان مجنونًا بتلك المرأة، التي كانت تصعد إلى شقته في الصباح وتظل معه حتى الظهيرة ميعاد فتحه لمحله. ذات يوم زاد في الجرعة حتى يحافظ على حب تلك المرأة فجاءه الموت بعد أن نزلت بنصف ساعة. يتذكره نجيب كلما تناول حصة يوم الخميس ويحمد الله أنه ستر عليه ولم يمت والمرأة في شقته.

تعلق بالفياجرا منذ ذلك الوقت وقبل الإنتاج المصري منها كان يمكن للقرص أن يكفيه شهرًا كاملاً، يحمله في محفظته مع البطاقة والنقود، ولكن بعد الوفرة من الإنتاج المحلي، أصبح لابد من البحث عن مكان آمن. بعد تنقل في أرجاء البيت، اكتشف أن زوجته تعرف كل خرم فيه، حتى الدرج الذي يحفظ فيه صورًا من شهاداته ومصوغات التعيين، وقرارات الترقية والأوراق المهمة التي يخاف أن يتركها في العمل، ويحمل مفتاحه مع مفاتيح البيت، خُيل إليه أنها تعرف ما بداخله.

كان حائرًا يضع الطعام للفراخ ذات يوم، ورأى برطمانات الأدوية في شباك العشة، فجاءت الفكرة. أوحى له البرطمان الصغير بأنه المكان المناسب، لونه البني الداكن والكتابة الأجنبية على جانبه حملت إليه حسًا بالخفاء. سوف يخبئ الفياجرا في واحد من تلك البرطمانات، وسيتوه في وسطهم. كان للخاطر حس بالفرح. أنسب مكان للفياجرا هنا، في شباك العشة بين أدوية الفراخ.

***

t.me/qurssan

يوم الخميس نقطة ضوء لامعة في نهاية الأسبوع، من صباح السبت حتى مساء الأربعاء أيام داكنة يمكن تحملها. أنارت الفياجرا حياته، وجعلت يوم الخميس زهرة الأسبوع.

لا يدع نجيب أي شيء يفسد يوم الخميس. عمله في إدارة المخازن ليس سيئًا لكنه مُوتر وتفاصيله كثيرة، وفي النهاية عمل ممل، يشبه ملل الحياة في المدن الصغيرة التي لايمكن تحملها بغير وعد بالبهجة في نهاية الأسبوع.

الأسبوع ميعاد محتمل لكي ينهي الزمن دورته، ويبدأ دورة أخرى. مرور الزمن يجعل المرء يشعر بالدوخة. ينصرف نجيب عن تلك التأملات المتعبة للقلب، لكن دهشته من تبدد الحياة تغلبه، يحاول الا يتعمق الأمر، حسه بما مر من حوادث وقد تحولت الآن إلى خواطر ومشاعر وأطياف يبدد أمانه الشخصي، مثلما تهدد مشاهد يوم العودة من بغداد اطمئنانه لاستقرار الحياة. في النهاية يقول لنفسه إن الأسبوع الذي اعتمده كمقياس للزمن، جعل العمر يمر بسرعة، وزاد من كثافة الإحساس بتبدد الحياة، لكنه من ناحية أخرى جعل من جفاف الحياة ومللها أمرًا محتملاً.

يوم أن وصل إلى الخمسين من عمره، أعد نفسه لمتعة الأسبوع بأكثر من نصف قرص فياجرا. لأول مرة يتخطى الجرعة التي قررها. الجرعة الآمنة حتى لا يتحول إلى ميت قبل الأوان مثل عمر ابن خاله. أراد أن يحتفل ويزيد من المتعة، لكن ضربات قلبه المضطربة والصداع الذي نزل من رأسه إلى عينيه أفسد اليوم، وقام يوم الجمعة حزينًا يلعن

t.me/qurssan

طمعه الذي أضاع احتفاله ببلوغه الخمسين.

يُشوشُ على بهجة يوم الخميس مشهد واحد، عندما يقف وسط العشة ويفتح البرطمان ليتناول القرص الجديد. يشعر بالصمت المريب حوله، كأن الفراخ تعرف ما يدبر، حتى الديك يرفع عُرفه وينقر في الأرض، يهل الذنب مثل تكشيرة على الوجه: قأقأة الفراخ كل خميس تُزعجه وتأخذ معنى مختلفًا عن باقي الأيام، ويهل سؤال خافت: لماذا يخفي الفياجرا؟ إنها موجودة في الصيدليات والناس تتحدث عنها علانية، والنساء يعرفنها. في المكتب سمع مرة امرأة تقول إنها تشتري لزوجها حبوب الفياجرا والترامادول، لماذا يُخفيها ويخشى انكشاف الأمر؟ يتخلص من الخواطر المنغصة بسرعة ويستبدلها بأخرى مرحة، وينصت إلى صوت الفراخ ويقول إنها تحييني، وتداري عليّ.

يشعر بأسى في أصباح الجمعة، فقد مضى أسبوع، وبدأ أسبوع، دورة الزمن وحكمته، وإن كانت محزنة غير أنها تحمل وعدًا بمكافأة، وفي النهاية هناك خميس قادم، لابد أن يكون، وإن توقف الخميس عن القدوم، ستتوقف الحياة نفسها، ينزل إلى صلاة الجمعة مع ابنه الصغير، ويشعر ببطء الزمن ويحس بأن هناك أمر غامض في الحياة، وأن هناك سر، في الزوال والوجود، وبعد الانتهاء من الصلاة، يصعد إلى سطح البيت يباشر الإصلاحات في عشة الفراخ.

***

في ليلة الأربعاء الماضي غادرت زوجته البيت لأن ابن أخيها ضُبط

t.me/qurssan

وهو يسرق شقة أحد أصحابه. اضطرت أن تبيت في بيت أخيها، ومن هناك سوف تذهب إلى عملها.

صباح الخميس صحا من النوم وقد شم رائحة تراب خافتة. قالت نبيلة ابنته إنها سمعت الفراخ تكاكي طوال الليل. تذكر أنه حلم بنقيق الفراخ عاليًا ومعدنيًا وهى تُخربش الحائط. في طريقه إلى الحمام قال: "يمكن عِرسة حاولت دخول العشة." ثم طَعَّم كلماته بالحكمة كالمعتاد: "الفراخ تدافع عن نفسها أيضًا".

كان مشغولاً بمشاكل ابن خال الأولاد، يشعر بالخطر، ويخاف من سيرة هذا الولد الذي عُرف في العائلة بأنه مدمن مخدرات ويسرق، ويثبّت الشباب بالمطواة ويأخذ هواتفهم، وعندما ذكر مخاوفه يومًا لنسيبه، قال له:" لا تخف يا أستاذ، الولد عارف ضابط في القسم."

في الطريق إلى العمل، كان التراب يحوم في الجو، والشجر يهتز، بجانب الطريق المحفر. شجرة الصفصاف لازالت هناك علامة على موقف الميكروباص، والمبنى الجديد المطل على الطريق السريع يستكمل أدواره العشرة. جاء ميكروباص. ركب بجوار السائق ونزل في شارع النحاس ووصل إلى الإدارة، وهناك نسيَ كل شيء عن قأقأة الدجاج طوال الليل.

انشغل حتى آذان الظهر في تنظيم دفاتر المخازن، وفي قراءة المنشورات الجديدة بشأن كتب الدراسة وأرسل مُكاتبات لمخازن المديرية يستعجل صرف ورق الإجابة، وعاكس موظفة مشيرًا إلى ليلة الخميس، فقالت بدلع بأن الرجل مسافر إلى البلد.

t.me/qurssan

في البيت عاد طيف القلق، وعاد حلم الليلة الماضية يراوده في لمحة وهو يقرأ التحيات في ختام الصلاة. اتصل بزوجته، قالت إنها ستعود في الليل لأن الولد يُعرض على النيابة، واتصلت ابنته من الكلية وأخبرته أن الأكل في الثلاجة، وشعر بالنكد: كيف يتحول يوم الخميس الى يوم قلق، هذه أول مرة تحدث من سنين، لا يجب الاستسلام كما علمته جدته.

قام من نوم الظهيرة مستبشرًا، عادت ابنته من الكلية، ونامت، وابنه في الدروس، والبنت الصغيرة مع أمها. البيت خالٍ والحس بيوم الخميس رجعت إثارته. كل دوشة الصبح راحت لحالها، عارض طارئ. جهز أكل الفراخ. طلع الى السطوح، التراب طبقة شفافة من رمل أصفر، والشمس قرص منزوع الأشعة يبدو بعيدًا عند الأفق معلقًا، خاليًا من نوره كأنه بالونة معلقة من أيام رمضان. في تلك اللحظة رأى شباك العشة مفتوحًا:

"يا نهار أسود؟"

دخل بسرعة. برطمانات الدواء متناثرة على أرض العشة، أقراص الفياجرا متناثرة تنقر فيها الفراخ، والديك يزوم بطريقة غريبة، ويرفع عرفه. سبعة أقراص فياجرا متناثرة على الأرض مع أكل الفراخ وروثها، تبدد مخزون شهر كامل. بدا له الأمر غريبًا، وبه حس بالخيانة.

انقلبت الأحوال. تبدد نظام استقر لفترة، وعاد القلق الذي يصاحب فترات التقلب.

***

t.me/qurssan

من السهل أن يصلح ضلفة الشباك ويحبكها ويعيد سيرة حبوب الفياجرا داخل برطمان الأدوية، لكن حسه بمهانة ما حدث قوض تلك الفكرة. لابد أن يفكر في مكان آخر، يصون فيه سره. وفي الحال بدت كل الأماكن مكشوفة. يمكن أن يخفيها في مكتبه في الشغل ويحمل معه كل خميس نصيبه، لكنه افترض أنه قد يحتاج أن "يعمل" في وقت آخر غير الخميس، سيكون مقيدًا، هنا في البيت عندما تنتفض رغبته في منتصف الأسبوع، يطلع ليضع الأكل للفراخ، لكن في الشغل لا يمكن، ثم أنه لا يصح أن يترك هذه الحبوب في مكتبه فهي تشبه الحشيش على نحو ما. اللحظة مربكة، مثل كل لحظات تقلب الأحوال، فتحت مجالاً للحيرة والتشوش وفتحت بابًا للقلق.

***

في المقهى يوم الخميس نظر بغيظ إلى حسين إدريس وهو يضحك من حكاية نقر الفراخ لحبوب الفياجرا، ولم يهدأ إلا بعد أن أخرج حسين شريطًا فيه أقراص ثلاثة وقال وهو يعود إلى الضحك:

"حتى تتوقف أن تحط زادك مع زاد الفراخ."

***

طوال الأسبوع ظل السؤال مقلقًا حتى الخميس التالي، ما هو المكان الذي سيضع فيه الفياجرا؟

في الصباح وبينما يرتدي ثيابه لمح جاكيت عُرسهُ في طرف

t.me/qurssan

الدولاب، معلقًا وحيدًا تَراكمَ على كتفيه التراب. فكر أن الجيب الداخلي للجاكيت هو المكان الآمن لأقراص الفياجرا، لكنه سوف يحرمه من الحس بالوفرة والخفاء الذين وفرهما البرطمان، ومن جهة أخرى سيكون طوال الوقت معرضًا للقلق أن تُفتشُ زوجته بَدْلةَ العُرسِ فتجدُ أقراص الفياجرا، فتكتشف الأمر. في تلك اللحظة شعر بالغضب من نفسه، وقال وهو واقف وسط الغرفة وفي يده القميص: "تكتشف، ماذا سيحدث؟ تكتشف"، ونحى الاعتراضات جانبًا وخضع لإغراء أن يكون جاكيت العُرسِ هو المكان الجديد لحبوب الفياجرا، بدون سبب حقيقي، بميل لا يمكن مقاومته، وتوجه إلى الجاكيت ووضع الشريط في الجيب الداخلي وشعر أخيرًا بأنه يبدأ مرحلة جديدة من حياته.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

حديث مريم

t.me/qurssan

t.me/qurssan

"ولست أطمع في أكثر من أن أموت موتًا له معنى"

نجيب محفوظ
اللص والكلاب

في الصباح اختارت مريم ملابسها بعناية. البنطلون الرصاصي الواسع، والحذاء الرياضي، والبلوزة البيضاء. جهزت الحقيبة: المسجل، والكاميرا، وكراسة الملاحظات، ولفت شعرها على شكل كعكة، ونزلت من شقتها، تفكر في النقاط التي يجب أن تتوصل إليها: ملامح الشاب، طباعه، عاداته، وأحوال الأسرة. القصة تكمن في الفجوة بين اختفائه وبين خبر موته. "إبراهيم عيد عرفات"، في الثانية والعشرين من العمر، مصرى، استشهد في عملية فدائية حسب بيان منظمة الجهاد الإسلامي في فلسطين.

المنزل في منطقة قريبة من محطة المترو. كوم زبالة على الناصية والأطفال يلعبون الكرة بالقرب من محل منجد. أثناء سيرها في الشارع الضيق، لاحقها أزيز ماكينة المنجد، التي أثارت في الشارع غبارًا من نِتف القطن. كانت تعرف العنوان جيدًا، من محاسن أخت إبراهيم، التي قابلتها أمس في مديرية الأمن، لكنها سألت رجلاً يقف على

t.me/qurssan

الناصية عن بيت "عم عيد عرفات". بانت المعرفة على ملامحه. كان يرتدي جلبابًا بلديًا ومن جيبه تظهر علبة سجائر كيلوباترا. قال بفطنة وبإعجاب بنفسه: "عشان الواد ابنه اللي مات في غزة؟" وسمح لنفسه أن يرافقها حتى باب البيت.

الشقة ضيقة. حاولت محاسن أن تُدخل مريم غرفة بها كنب عليه كليم من قصاقيص القماش، لكنها جلست على مقعد بلاستيك بجانب الباب في الصالة، حيث تحلقت ثلاث نساء يرتدين الملابس السوداء حول أم إبراهيم. بعد قليل انصرفت النساء وبان التوتر على "عم عيد". ظل صامتًا ينظر إلى باب الشقة المفتوح.

على الفور أدركت مريم أن الرجل لا يعبأ بها، وعللت اختفاء الحفاوة التي يبديها الناس عندما تُطلب منهم الأحاديث الصحفية، إلى المصاب الأليم للأسرة، فلم تجد في نفسها الجرأة أن تشرع في التقاط صور لأهل البيت.

أخذت "محاسن" المبادرة وأحضرت صورة لأخيها. كانت فتاة سمراء، تربط رأسها بمنديل أسود وتشده على الجبهة على عادة نساء الريف. أخبرت مريم بأنها تَخرجتْ من معهد الخدمة الاجتماعية وتعمل في حضانة أطفال في شبرا. لأول مرة تشعر مريم في عملها بهذا التوتر، وبأنها تفعل شيئًا لا يجب أن تفعله، رغم أنها هي التي طلبت أن تجري تحقيقًا حول ذلك الشاب المصرى الذي أعلنت منظمة الجهاد الإسلامي أنه فجَّر نفسهُ في كَمين للجنود الإسرائيليين.

t.me/qurssan

تَفحصتْ صورة إبراهيم مع أخيه الصغير أيمن. الوجه أسمر والشعر خشن، الحواجب كثيفة. يرتدي قميصًا أبيض، تحته فانلة نصف رقبة سمراء. التقطت الصورة في أحد الأعياد، عندما كان صبيًا. ضمت الإخوة الثلاثة محاسن وإبراهيم وأيمن. الحزام كان واسعًا وقد شدهُ إبراهيم حتى ظهرت طيات كَمر البنطلون. بسمةُ خافتة طفولية تلوح، بعد التدقيق، في الملامح. طلبت الأم من محاسن أن تُحضر صورة أكثر وضوحًا، وأقرب إليه، من فوق المرآة.

الصورة الأخرى نصفية لنفس الملامح، وقد نضج الوجه، وظهر في نظرة العين ما يوحي بالقوة وإدراك الذات، لكن الوجه عمومًا لم يكن يتناسب مع العمليات الفدائية. لم تكن صورة الشاب الذي حصل على دبلوم تجارة منذ عدة أعوام وعمل مع أبيه في تجارة الأقمشة في منطقة الموسكي تعطي إيحاءً بصور الشهداء أو المقاتلين. صورة لشاب عادي يمكن أن يشاهدها المرء في الميكروباصات موضوعة تحت طبقة المشمع الشفاف لكرسي السائق، كاشفة تلك الترتيبات المسبقة التى يقوم بها الشباب لالتقاط الصور مثل: ارتداء أفضل الملابس وتصفيف الشعر وتثبيته بالكريمات.

كان الوجه منتبهًا للتصوير كأنه يعرف- ولو بشكل غامض- بأن تلك اللحظة سوف تبقى إلى الأبد، وأنه سوف يثبّت ذاته الآن في الصورة، أما هو فسوف يغادر تلك اللحظة، ويكبر، والطيف الذي سيتركه في الصورة سيظل في مكانه شاهدًا على ما كانه في يوم من الأيام. إدراكه الخفي بأن تلك اللحظة سوف تبقى؛ جعلته يقف أمام

t.me/qurssan

الكاميرا بانتباه ويُظهر ما في شخصيته من قوة، وينظر مباشرة في عين الكاميرا. رغم تلك الملاحظات التي راحت مريم تستخرجها من الصورة فقد تأكدت أنه شاب عادي يمكن أن يشاهد المرء المئات من أمثاله في محطات الأتوبيسات وفي الأسواق وعند بوابات المدارس الفنية.

***

بددت محاسن جو الترقب في الصالة وبدأت تحكي حكاية الأسرة من البداية. ترجع أصول أبيها إلى محافظة سوهاج، الأب يعمل من صغره في تجارة الأقمشة متجولاً بين القرى، ولكنه عانى من تعب في المفاصل، وكراهية للطرق، رغم أنه كان لايزال شابًا، ولم يعد يطيق الصعيد، فهاجر إلى القاهرة واستقر في عدد من الأماكن حتى قابل زوجته هنا، فأجَّرَ تلك الشقة وعاش فيها وأنجبهم.

حصل إبراهيم على دبلوم التجارة منذ عدة سنوات وفي انتظار التجنيد عمل مع والده في تجارة الأقمشة. يتجول معه في الأسواق، سواء في الجيزة أو في بنها أو في الإمام الشافعي أو في سوق الثلاثاء. لم يتغيب عن البيت إلا مرة واحدة. كان ذلك عندما سافر ليشتري أقمشة من بورسعيد، وقام بعض التجار بالنصبِ عليه وأخذوا منه ألفي جنيه وخاف أن يعود. ذهب عم عيد وبعض الأقارب إلى بورسعيد وأحضروا الولد.

تؤكد محاسن أن إبراهيم كان شهمًا، لم يكن له في هلس الشباب. لم يكن يطلب الكثير، كانت تعرف أنه يريد أن يتزوج البنت نادية التي

t.me/qurssan

احبها أيام مدرسة التجارة، لكنها تزوجت بعد أن أنهت الدبلوم، ومن يومها قل كلامه، يذهب إلى السوق مع أبيه وعندما لا يكون هناك عمل يعود إلى البيت وينام طوال النهار.

قاطعتها الأم قائلة إنه طول عمره "كلامه قليل"، كما لو أنها أرادت أن تنفي عن ابنها الحزن بسبب الحب.

بعد زواج نادية هجر شلة المدرسة، وعندما حصل على وعد من أبيه بأن يزوجه بمجرد أن ينتهي من التجنيد، تهلل لعدة أيام وعمل بحماس.

قالت محاسن:

"اخويا أنا سره وهو سري."

في صباح يوم من أيام نوفمبر قبل رمضان بعدة أيام، تناول إفطاره وخرج من البيت، كان المفروض أن يذهب إلى سوق الموسكي. لم يخبر أحد أثناء الإفطار ما كان ينويه، كان يضحك ويمازح محاسن، ويقول إنه سوف يعيدها إلى سوهاج مرة أخرى ويبني لها فرنًا وبيتًا من الطين.

في المغرب لم يرجع إبراهيم.

قال عم عيد إنه سوف ينهي العمل ويعود. انتهت الليلة ولم يعد. في صباح اليوم التالي خرج عم عيد إلى السوق، وعنده أمل أن يجد ابنه في مكان ما. سأل عنه معارفه من الباعة فأخبروه بأنهم لم يروه أمس في السوق. بدأت المخاوف. توجه إلى قسم الموسكي ربما يجد الولد محجوزًا

t.me/qurssan

في القسم لسبب ما، ربما غيّر مكان فَرْشَتِهِ وامسكته البلدية لأنه يبيع في السوق[1] بدون ترخيص، لكنه لم يجده في قوائم القسم وابلغه احد العساكر بأن خناقة كبيرة وقعت امس اصيب فيها عدد من الشباب، "ربما يكون ابنك من بين المصابين"، توجه إلى المستشفى، يبحث وسط المصابين لكن إبراهيم لم يكن موجودًا.

كل يوم يعود عم عيد إلى البيت. في المشوار الصغير من محطة المترو حتى الشقة يمتلئ القلب بالأمل ثم ينطفئ عندما يجد البيت خاليًا من الولد. الأم تكتم مشاعرها حتى لا تُزيد هموم زوجها، لكن قلبها "مولع نار" كما قالت.

تعب من السؤال في أقسام الشرطة والمستشفيات. كان ذلك مع بداية شهر رمضان، فقام بتحرير محضر تَغيب في قسم ثان شبرا. بعد ذلك بفترة قصيرة جاء مخبر واستدعاه إلى أمن الدولة. دخل مكتب الضابط، خائفًا وآملاً في نفس الوقت. سأله الضابط عن ابنه وهل كان متدينًا أو له علاقة بالجماعات الإسلامية وعن أصحابه ومعارفه. بعد طول "مناهدة" أخبره عم عيد بأن ابنه كان يعمل من طلعة الشمس حتى المغرب ولم يكن له أي دعوة بهذا الكلام، بل كان يكره "السُنّيّين" لأنهم كانوا يُضيقونَ عليه في السوق: "يَرغبون في طردنا ليفرشوا مكاننا."

قبل أن يغادر أمن الدولة، تُرجى الضابط أن يُخبره عن مكان ابنه ويصارحه بالأمر، قال: "أريد أن أعرف مكانه حتى لو كان في المعتقل." لم يحصل على إجابة. خرج من المبنى معتقدًا أن ابنه في المعتقل. بعد عدة

t.me/qurssan

أيام قابل صولاً، كان زبونًا عنده، وتوسل إليه أن يساعده في معرفة مصير ابنه، قاده الصول إلى ضابط آخر، أكثر رأفة، أخبره بأن ابنه على قيد الحياة وربما يكون قد دخل فلسطين.

قال عم عيد: "اعتقدت أن الضابط يهزأ بي ولم أصدقه."

بدأ يبحث عن الولد في السجون. يتوسل إلى كل من يقابله أن يساعده في معرفة مكانه. لم تثمر تلك الجهود. لم يكن أحد يعرف عن الولد شيئًا. يَتطلعون إلى الصورة ـالتي تُمسكها مريم الآنـ وينفون أنهم رأوه.

في عددٍ قليل من المرات نجحت توسلات عم عيد أن تجعل العسكري يفتح السجلات ويبحث فيها عن "إبراهيم عيد عرفات" علّهُ يكون بين المساجين. في تلك اللحظات يلوحُ الأمل مرتجفًا، ويقفُ عم عيد متعلقًا بشفتي العسكري، لكن الوجه يرتفع من فوق السجلات، والرأس يهتز ويصدر عن الشفتين ذلك الصوت الغريب: "طأ".

مفاصل عم عيد لا تقوى على حمله، المرض القديم حَلَّ عليه، لكن الأمل الخافت يجعله يواصل البحث؛ ربما الولد في سجن آخر، سافر إلى بلاد كثيرة وبحث في سجونها. انتهى الأمر، وفوض أمره لله، لكنه لم يَكُف عن حَمل صورة الولد في جيب الصديري، ويجد نفسه أحيانًا يَعرضهُا على شخص يتوسم فيه أنه قد يساعده. استمر الحال لمدة عامين حتى أعلنت منظمة الجهاد الإسلامي عن استشهاد "إبراهيم عيد عرفات" في عملية فدائية.

***

t.me/qurssan

أغلقت مريم المسجل وأطفأت الكاميرا ولمت أشياءها وغادرت البيت وهي تشعر بعدم الرضا عن عملها. تورطت في القصة أكثر من اللازم، كما قالت لي بعد ذلك.

رافقتها محاسن حتى محطة المترو. في الطريق طلبت من مريم أن تساعدها في الحصول على "شيء من ريحته": قميص، بنطلون، منديل، أي شيء من رائحته. قالت ذلك والدموع في عينيها.

تلك هي اللحظة التي خافت منها مريم. كانت تعرف أن الوجع هنا؛ في المتعلقات، البقايا، التقاليد القديمة التي لا تموت، الهُوة التي يفتحها الموت عندما لايُدفن الميت، هنا يكمن الهول، روح الشخص ستظل هائمةً دون راحةٍ حتى تُدفن، فكرة قديمة مستقرة في الأذهان مخلوطة بالحياة، جزء من اللحم، ليست مجرد فكرة موروثة.

ربتت مريم على كتف الفتاة ووعدتها أن تبذل ما تقدر عليه، لكن محاسن أمسكتها من يدها، كأنها تخاف أن تمضي بلا رجعة وظلت تُكرر طلبها دون وعي: "لو قميص أدفنه حتى يستريح، وأعرف له مكانًا أزوره وأتكلم معه." كان الأمر فوق تحمل مريم، ولم تتمكن من الراحة حتى حصلت على وعد من أحد معارفها، "صحفي كبير" يعمل في جريدة لبنانية، له علاقة بأشخاص يمكن أن يساعدوا في العثور على أي شيء من متعلقات "إبراهيم عيد".

***

t.me/qurssan

الموضوع الذي سلّمتهُ مريم إلى الجرنال تمت مُعالجته، بطريقةٍ أخرى، ونُشر تحقيقًا مختصرًا عن أهل الشاب وحياتهم وملامح البيت ورحلة الأب من الصعيد. لم تغضب مريم ولم تعاتب رئيس التحرير؛ فقد ظلت مؤرقة بهذا اللقاء، رغما عنها. "هناك ما يُقلقُ في تلك القصة." قالت لي. في كثير من مرات لقاءاتنا المتباعدة، راحت تُعيد ترتيب الأحداث، وفي الفترة الأخيرة بدا لها أنها فهمت ما كان يقلقها في هذا اللقاء.

قالت وهي تعلق عينيها بوجهي دون أن يبدو أنها تراني:

"إنه عم عيد."

كنت أدرك قلقها وحسها بأن الكتابة في الجرائد نوع من الخيانة للقصص الحقيقية، كان الأمر يخص جذرية العلاقة بينها وبين المهنة التي قالت إنها سوف تتركها عاجلاً أم آجلاً.

حدثتني حديثًا طويلاً في ذلك اليوم على أمل أن تتمكن من تفسير مشاعرها:

"كانت نظرة عم عيد لي غريبة. شعر بالتوتر منذ أن دخلت البيت. وسايرني في البداية، لكن بمرور الوقت لاحظتُ لمسة من الغضب، وحس بالعداء تجاهي. أدركت هذا من نظرته المنصرفة عني كأنني غير موجودة. كان رجلاً نحيلاً، يرتدي جلبابًا بلديًا وطاقية محبوكة على الرأس يلفها بشال أبيض. ملامحه حادة. العينان غائرتان تحت حاجبين

t.me/qurssan

مرتفعين، فيهما شعيرات بيضاء وشعر لحيته رمادي، وشاربه كثيف. كان ينظر بحدة وتُطلُ من نظرته لمسة من السخرية، ويبدو متربصًا بي، كأنه يقول: لم تبحثين عن مصير الولد، لم لا تذهبي لتتزوجي وتنجبي أطفالاً؟

كان السؤال صامتًا معلقًا في النظرة، وشعرت بشيء من المهانة، الرجل يرى بحثي عن مصير ابنه وتسجيل قصته عملاً مشبوهًا؛ تجارة بأوجاع الناس، بصراحة استفزني تحديقه لي. كان لا يفهم لِم تهتم فتاة مثلي بهذه القصة، لِم تبحث عنهم وتتعب نفسها لتتحدث معهم. في يقينه أنني جئت من اجل أن أعمل موضوعًا شيقًا للجرنال، وأنني أجري على رزقي مثلما يجري على رزقه. بل كان يظن الأسوأ، لقد علمته الخبرة أنه لا مكان لشيء طيب في هذا السوق الكبير، لا أحد يعمل أي شيء من أجل فكرة أو مبدأ، وقالها بصراحة: "عاوزة تبقي مشهورة؟" ولاحت بسمة ساخرة خلف الكلمة، وهو ينظر إلى الباب المفتوح.

بعد ذلك عندما فكرت في الأمر، وجدته منطقيًا. واحد موجوع، وأنا ذاهبة لكي أزيد أوجاعه. لا قصتي ستعيدُ إليه ابنه، سنده في الحياة، ولا يحتاج أن يكون مشهورًا، ويضع الجرنال في جيب الصديري ويُريه لزملائه في السوق: شوفوا صورتي في الجرنال وقصة ابني.

هذه هي ورطتي التي دفعتني، كالعادة، وكما تعرف، إلى الهجوم على الرجل، وقلت كلامًا كبيرًا لكي أدافع عن نفسي لكن الوجع والنظرة

t.me/qurssan

الساخرة استدعت أمرًا حقيقيًا إلى حديثي لم أفكر فيه قبل تلك اللحظة.

وصل التوتر إلى غايته عندما سمعته يقول ساخرًا:

"لا أحد في هذا الزمن يعمل شيئًا لله."

شعرت بالكلمة مُهينة، وفارَ دمي، قُلتُ بحسمٍ:

"اسمع يا عم عيد، فعلاً جئتُ من أجل عمل موضوع للجرنال، لكني لا أصدق موضوع ابنك، ابنك غريب. كيف فعل هذا؟ مثلما يُحيرك موقفي، موقف ابنك يُحيرني، ما الذي دعاه أن يذهب ليموت في أرض غريبة؟ تعرف يا عم عيد لعله أحسن منا جميعًا، لعله أدرك فجأة غلاوة الحياة وعرف أنه إن عاش هنا فسوف يعيش ويموت مثلنا بلا معنى، وأنه ذهب ليموت هناك، لعله يُعطي لحياته الصغيرة معنى، يحصل بموته على شيء أغلى من حياته وحياتنا."

تكلمتُ بحماسةٍ كأن كل مشاكلي الشخصية خرجت في الكلمات، كأنني أفرغتُ قلقي وشكوكي في دوافعي ومهنتي. في تلك اللحظة سمعت الأم تبكي. كانت محاسن تقف متحفزة مستندة على إطار باب الغرفة، تتابع ما يحدث بانتباه، وفي كل لحظة يبدو أنها على وشك أن تقول شيئًا لكنها تصمت.

أغلقت الكراسة التي أسجل فيها ملاحظاتي وقررت أن لا أكتب الموضوع، يأتي صحفي آخر ليكتب. أما أنا فلن أفعل. كان كلامي عن ذلك الدافع الغامض الذي دفع الشاب ليموت قد استدعى لمحة من

t.me/qurssan

الانتباه إلى الفضاء المعتقل فوقنا في الصالة، عندها نظر الرجل العجوز المجرب نظرة غريبة تجاهي كأنه صحا على شيء كان يظنه غير موجود.

لابد أن سخريته الجارحة قد استفزتني، وكشفت لنا معا أمرًا مختلفًا؛ رؤية أخرى لما قام به إبراهيم. نظرة الرجل لمع فيها الفهم، وفي لمحة حط صمتُ ثقيل، وبدا لي أن حياتنا جميعًا لا تساوي شيئًا بجانب الحياة التي فجَّرها الشاب. كأنه كشفنا جميعًا. كَشفَ ما نعيش فوقه من عفن وعدم احترام لأنفسنا كبشر، كأنه بتفجيره لجسده ومحو شخصه قد أوجد ومنح قيمة كبيرة لتلك الإنسانية التي نُهدرها بهذه الحياة التي تشبه حياة الدود.

***

نظرت مريم إليّ بعينيها السوداوين العميقتين وعرفتُ أنها بدأت تستوعب وجودي، وتراني، وأكملت:

"أقدر اختلافك واختلاف البعض مع ما فعل وإن كان هو الطريق الصحيح لنيل الحرية. لكن إبراهيم لم يكن يفكر في الحرية قدر ما كان مدفوعًا بغموض لأن يستعيد المعنى الغائب عن حياته، شاب زهق من الدنيا، وقال أعمل بجسدي شيئًا له قيمة. أنت رأيت في التليفزيون في السنوات الأخيرة صبية صغار، تركوا المدارس وقطعوا الطريق حتى العريش وأرجعتهم السلطات لأهلهم، ألم ترى ذلك؟"

نظرت إلي نظرة فاحصة كأنما تريد أن ترى أثر كلامها:

"اقتربتُ من فهم الأمر بعد ذلك، عندما بدأت أكتب الموضوع

t.me/qurssan

وأعد بحثًا عن تاريخ العمليات الفدائية والاغتيالات السياسية وأعرف الأسباب التي دعت الكثير من الشباب لكي يضحوا بأنفسهم، منذ اغتيال بطرس غالي الكبير في عام ١٩١١ كان لبعضهم هدف سياسي أو ديني، أما هذا الشاب فلم يكن عنده إلا سبب وجودي: استعادة المعنى الغائب عن حياته. لم يكن يحب السنيّين الذين يطاردونه في السوق لكي يفرشوا مكانه، ويقطعون رزقه. أعرف أنه انتحار، ولكن الانتحار حدث بسيط، المنتحر يريد أن يُفني نفسه فحسب، لكن الفكرة التي قادت هذا الشاب كانت أبعد من الانتحار، أراد أن يُحيي بفنائه كل ما افتقده في حياته. إنه دافع أكثر جذرية وعمقًا من تلك الأمور التي حدت بشباب كثيرين للتضحية بأنفسهم من أجل أفكارهم، أو الذين انتحروا يأسًا من أوضاعهم.

المهم أنني كنت عصبية وأنا أتحدث مع عم عيد، أريد أن أعيد لنفسي تلك الكرامة التي حذفها عندما أشار إلى أنه لا أحد يعمل شيئًا لوجه الله واتهمني ضمنًا بأنني أتاجر بألمه وبموت ابنه، ربما لم يكن يقصد غير أن يقول: "سيبونا في حالنا" لكن الكلمة استفزتني ودفعتني إلى تلك الوصلة من الكلام العجيب الذي قلت إنهم لن يقدروهُ.

الغريب أن وجه الرجل أضاء، وفي تلك اللحظة لم يكن في الصالة غير بكاء الأم الصامت وعرفتُ أنني فقدت السيطرة على نفسي وغلبتني عصبيتي كالعادة. عرفت أن الحزن الكبير هنا، في تلك القلوب المتعبة، وبدا الرجل الناشف العصبي متضايقًا من بكاء زوجته ويبدو أنه كان يريد أن يفض الموضوع ويقوم لأشغاله لكنه لم يستطع أن يقاوم تلك اللحظة الغريبة التي وهبتها لنا سخريته".

***

t.me/qurssan

كانت مريم منفعلة، تصفُ ما حدث في تلك اللحظة، تجسمها وتحاول أن تصل إلى مزيد من الفهم، تنتقل من نقطة إلى أخرى كأنها تعيش مرة أخرى تلك الزيارة:

"لم يكن هناك غير سجادة صغيرة في الصالة، وحجرة بابها موارب. رأيت بداخلها ثلاثة أسِرة، البوتاجاز في الصالة لأنه لا يوجد مطبخ، والحمام عليه باب خشبي مخلع، وتشم رائحة عطنة. البيت نظيف، فعلت محاسن كل ما يمكنها لكي تحافظ على نظافة البيت، لكن الرائحة هناك، ماذا يمكن أن يفعلوا إن كان الأمر ليس بيدهم؟ مهما حاولت تنظيف البيت سوف تظل رائحة البول تهل بسبب عدم وجود شبكة صرف صحي. كان الأب قد عافر حتى وجد رزقه هنا، لا تقل لي لم اختار هذا المكان بالذات؟ هؤلاء الناس لا يختارون المكان بل يختارهم، إنهم يسيحون في البلاد وراء رزقهم حتى تختارهم فتاة طيبة فيقيمون في المكان الذي اختارهم، ربما لو ظل هذا الرجل في قريته كنت تراه جالسًا على القنطرة مع عمال اليومية. لقد رأيتهم عندما كنت أبحث موضوعهم. رجال وصلوا إلى نهاية الأربعينيات ومع ذلك يجلسون وسط الشباب ينتظرون مقاولاً ليأخذهم ينقلوا رملاً أو طوبًا أو اسمنت أو يحتاجهم في مقاولة للهدم. من بنى تلك المدن التي لن تذكر شيئًا عنهم؟ ومع ذلك لا يختارون المكان الذي يعيشون فيه".

***

t.me/qurssan

قالت مريم:

"هل تعتقد في الغيبيات؟ هل تظن أن تلك اللحظة كانت مثل شيء سماوي حط علي وفتح لي بابًا كان يمكنني أن أعيش حياتي ولا أجده. هذه اللحظة غالية، لقد حكيتها لك بالتفصيل لأنك الوحيد الذي يمكنه أن يفهمني أو يساعدني، ومع ذلك أشك، فلم تعد تستطيع أن تساعد نفسك."

قالت الأم لكي تقطع جو الصمت الكالح الذي أعقب كلامي: "سوف أقوم لأُعد الشاي." أما عم عيد، وكأن طاقة المعنى التي ضمتنا قد فتحت أمامه مجالاً للفهم، فقد راح يحكي لي رحلة الخروج، البلاد التي سافر إليها ولم يتحملها، رفيقته بؤجة من القماش الذي يفرده في الأسواق. عندما يحكي لك أحد هؤلاء المنغلقين على سرهم، عن حياته فلابد أنه وجد معنى ما، وأنه يُحملك أمانة غامضة. هؤلاء لا يُلقون دُررهم أمام الخنازير. صعب أن تأخذ منهم شيئًا حقيقيًا. يقولون لك ما تريد أن تسمعه. إن كنت تريد أن تسمع شيئًا وطنيًا، يقولون لك، إن كنت تريد أن تسمع وصلة مدح للبلد والحكومة يقولون لك، ولكن أن يحكي لك الرجل حياته من أيام ما كان شابًا، وخروجه من قريته وطوافه في البلاد وسفره إلى الأردن والعراق ثم رحلته القصيرة إلى السعودية، فتأكد أنه يريد أن يُبلغك رسالة.

في السعودية تعارك مع الكفيل ولولا توسط أقاربه لكان الآن في ظلمات السجون السعودية، ومن يومها حَلفَ بكل الأيمانات أنه لن

t.me/qurssan

يفارق هذه الأرض ولو مات من الجوع.

كان يحكي الأمر بدقة وبصورة غريبة فيها اعتراف بقيمة ما حدث له، كأن موت ابنه أعاد المعنى لكفاحه، لعزته التي لم يرض أن تُهدر في السعودية.

قال في النهاية:

"كل شيء قسمة ونصيب."

ونظر لي نظرة صلح:

"والحمد لله على كل الأحوال."

وأصر أن أتناول معهم لقمة: "عيش وملح" كما قال.

***

أخبرتني مريم أنها لم تشف من تلك الزيارة. بدا لها أن الفقر الذي رأته لا يمكن أن ينتج أفكارًا على تلك الدرجة من السمو، وشعرت بالكراهية تجاه نفسها لأنها تفكر على هذا النحو، كأن الأغنياء هم فقط من يمكنهم أن يفكروا تفكيرًا ساميًا، رأت التحيز، ورأت أنها خاضعة للصورة الذهنية أن تلك الأماكن الفقيرة (ما يطلق عليه صحفيًا العشوائيات) تغصُ بكائنات في أدنى درجات البشرية. تلك الفكرة التي روجتها المخاوف وتَلوحُ في تصريحات الساسة بأن الجوعى سوف يهجمون على القاهرة ويحرقون الأخضر واليابس، أو تظهر في برامج الصدقات أو الرعاية الاجتماعية التي تساعد في تكوين صورة ذهنية عن أن البشر في

t.me/qurssan

تلك المناطق أنصاف متوحشين. لا يقال هذا صراحة، لكنه مُتضمنٌ داخل القول، ورأت خطورة تلك النظرة التي تتهم الناس بأنهم أقل في السلم البشري لذا هم يستحقون ما هم فيه، ولا يمكن أن يخرج منهم أي شيء سامي، وبالتالي يمكن إبادتهم في مراحل الاضطرابات بلا أي شعور بالذنب.

تلك الأفكار تسللت إليها وشكلت دهشتها من تلك الرحلة التي قام بها ابراهيم عيد عرفات، وأدركت أنه يحمل في روحه لمسة من النور، رغم عدم فهمه لها. فَحصتْ أفكارها وشَعُرتْ بالهزيمة، رأت تحيزها، وتتبعت قصة الشاب مرة أخرى بطريقتها، لابطريقة الجرنال، راحت تبحث عن أصحابه، وتتفحص تفكيرهم وتسألهم عن عاداته وراحت تساعد الأسرة في الاتصال بأحد أفراد منظمة الجهاد الإسلامي حتى يرسلوا متعلقات الشاب.

***

بشكل غامض شعرْت بأنها أحبت الشاب، وتأكد لي ذلك بمرور الوقت، فعندما تعود من القاهرة، تزورني وتُطلعني على آخر ما وصلت إليه من معلومات، تحكي لي عن الأسواق الغائرة في قلب القاهرة. قالت لي ذات يوم، ببراءة التعرف الأول: "هل تصدق أن هناك مكان مخصوص للحمام الزاجل، وهناك هواة لازالوا يقتنونه؟ هل تصدق أن هناك من يهتم بصراع الديكة، وهناك مكان للمصارعة ومراهنات؟ أنت لا تصدق؟ لكنه يحدث"، وفي كل مرة تنتهي بالحديث

t.me/qurssan

عن إبراهيم. رأت كل ذلك بفضله، عرفت تفاصيل لم يكن لتعرفها لولا موته. أظهرت لي ذات يوم صورة له وقالت:

"انظر إلى وجهه ودقق في العينين بالتحديد: العين مصباح الجسد، كما يقول السيد المسيح، انظر جيدًا سوف ترى أن تلك الصورة كأنما صُورت بعد موته أو كأنه يعرف أنه سوف يموت في أرضٍ غريبةٍ."

كانت أحيانًا تَشرد وهي تحدق في الصورة، كأنما لا يمكنها التوقف. لقد أوغلت في الموضوع حتى نبهتُها ذات يوم:

"إنه موضوع وانتهى، انتقلي إلى موضوع آخر."

قالت:

"إبراهيم عرفات ليس "موضوعًا"، إنه الشفرة التي علي فكها لفهم هذا الهلام الغريب الذي نعيش فيه."

في تلك الفترة لم أكن أعرف أنها تُعد للسفر للعريش لكي تتابع الرحلة التى قام بها الشاب. عرفتُ الأمر بعد عدة أشهر وبَدتْ مُحرجةً وهي تحكيه لي وقالت كأنها تعتذر:

"كان لا بد أن يتم الأمر، شعرت بأنني لن أتمكن من الفهم إلا بعد أن أقطع الرحلة التي قطعها."

قالت:

"سجلتُ مع شيخ الجامع الذي بات فيه إبراهيم ليلته الأخيرة، أخبرني بأنه حاول أن يُقنعهُ أن يعود إلى أسرته وأن لا يُعرض نفسه

t.me/qurssan

للخطر، لكنه في الصباح لم يجده، ونسيه ولم يتذكره إلا عندما شاهد الصورة التي عرضتُها عليه."

كانت النقطة الصلبة التي توقفت عندها وقضت وقتًا طويلاً تحاول فهمها هي شهوة الموت التي اعترت الشباب، وإن كان الشباب الغرقى في البحر المتوسط تقودهم فكرة الانفلات من حياة ضيقة إلى حياة رحبة في أوروبا، فكيف يمكن تفسير من يذهب إلى الموت برجليه خاصة إن كان شابًا عاديًا ليس مرتبطًا بالتيارات الإسلامية أو تربى تربية فكرية من أي نوع. صحيح يمكن أن يكون قد حدث له هناك نوع من غسيل المخ كما تقول: "الاستشهاد وتصوير الجنان التي سيدخلها والمنزلة العالية باعتباره شهيدًا، كل ذلك معقول، ولكن مهما صوروا لك ما ينتظرك لا يمكن أن تبدد نفسك في الفضاء مادام الأمر ليس نابعًا من أعمق أعماق روحك."

صَمَتتْ كأنها تنتظر ردًا على فكرتها.

صمتُ صمتًا أكثر انغلاقًا من صمتها، فقد أدركتُ أنني غير قادر على فهمها ولا مساعدتها وعرفتُ أنها وقعت في أسر القصة ولن تنجو منها.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

مخاوف نهاية العمر

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

في مساء يوم شتوي، تردد في ميدان بطرس صوت غراب. فتحت الست "عنايات" عينيها وانصتت. لم تسمع أبدًا نعيق الغربان في الليل. في ظنها أن الطيور تصدر أصواتها في النهار، وعلى مشارف الليل. في عمق الظلمات، كل المخلوقات تأوي إلى مساكنها، سُننُ الله، والغربان بالذات تعيش في الأماكن المهجورة، وليس في ميدان وسط المدينة.

جلست في فراشها ودلت ساقيها، يراودها شك، أن ما سمعته، هو صوت تَرددَ في أحلامها. لم تمض لحظات حتى جاء صوت الغراب مرة أخرى، قويًا من اتجاه المركز الطبي، خشنًا، تَركَ في روحها إحساسًا يشبه ما يتركه لمس الخيش على الجسد.

وقفت حائرة وسط الغرفة. ارتدت الروب وغطت كتفيها بالحِرام الصوف. أطلت من الشرفة. رأت بعض الشباب يقف حول كشك "أم أشرف"، والبعض الآخر يقف مستندًا على سور المركز الطبي. نظرت إلى شجر الفيكس الكثيف، وعمود النور والشرفات العالية، علّها تعرف مصدر نعيق الغراب، ثم تطلعت بتوسل إلى سماء تبرق فيها نجوم بين فجوات السحب.

t.me/qurssan

لم تستطع النوم بعد صلاة الفجر. جلست على السجادة في وسط الغرفة، تقرأ ما تعرف من الآيات والسور القصيرة، حتى انتشر النور ولمع ضوء الشمس على شيش النافذة القبلية. دخلت المطبخ تنصت إلى البيت، منتظرة يقظة رأفت، الذي قام كالعادة، متأخرًا من النوم. سألته قبل أن ينزل إلى عمله إن كان قد سمع نعيق غراب في الليل، اخبرها متعجلاً وهو يُغلق الباب وراءه بأنه لم يسمع شيئًا.

(٢)

انتظرت طوال اليوم، أن تصادف علامة، شخصًا، يعرّفها إن كان ما سمعته في الليل صوت غراب حقيقي، أم حلمًا من احلامها. قامت بأعمالها المعتادة. نزلت السوق في العاشرة، وجهزت طعام رأفت.

في المساء جلست أمام التليفزيون وقد نسيت الغراب، لكن عندما شاهدت في المسلسل قرية فيها أشجار كافور عالية، عاد إليها صوت الغراب ونكد الليلة الفائتة. وتذكرت اضطرابها وهي تسير في طريق ترابي مشابه ذات يوم عندما ذهبت لكي "تعمل عمل" لزوجها، عندما تزوج عليها أرملة أحد التجار.

يومها نزلت من عربة الأرياف القديمة خائفة؛ فلو عرف زوجها سوف يُطلقها. مشت إلى بيت "الست نادرة". بيت من الطين أمامه ترعة وشجر كافور عملاق، تنعق الغربان من جوفه بصوت خشن يقشعر

t.me/qurssan

جسمها. عملت "العمل" وعادت خائفة متشككة من جدوى المشوار. بعد عدة أشهر، طلق زوجها المرأة الأخرى؛ فشعرت بالنصر ونسبت الطلاق لعمل الست "نادرة".

(٣)

رأفت لا يدخل البيت قبل الثانية صباحًا. أدركت أن النوم لن يطاوعها. ظلت جالسة في الصالة تشاهد التليفزيون، حتى شعرت ببوادر النوم. دخلت غرفتها، وتمددت في الفراش. قرأت الشهادتين كعادتها منذ موت عمرو ابن أخيها، حتى إذا ماتت، كما تنبأ، ستكون على الأقل قد ماتت مؤمنة وموحدة. خافت مرة أخرى من الظلام، ومن منغصات الليلة الماضية، لكن النوم خطفها.

صحت على نعيق الغراب. الصوت هذه المرة واضح كأنه يأتي من الشرفة. لم تجد بدًا من أن تنادي رأفت، غير أن صوتها لم يخرج.

نحت الأغطية عن جسدها. جلست والبرد يخزها مثل الإبر. تلاشت بقايا الصوت وحل صمت واسع نقي، فشعرت بأنها ستموت الآن. حضرت اللحظة التي قال فيها عمرو: "هحط لك السم في الأكل."

أضاءت نور الغرفة وتحركت بجسدها النحيل منحنية قليلاً. بحثت عن الخِرام ووضعته على كتفيها. اتجهت إلى حصنها الآمن: كرسي صالون قديم بجوار منضدة صغيرة عليها الراديو مضبوط على محطة

t.me/qurssan

القرآن. جلست مثل طفلة خائفة، ملتصقة بالمقعد ومتكومة على نفسها، تتوسل السكينة من ترتيل القرآن.

جاء نعيق الغراب مرة أخرى. هذه المرة كان مبحوحًا وخُيل إليها أنه من بنات خيالها. أدركت أنها إن لم تعرف مصدر الصوت سوف يطير عقلها. حضر إصرارها القديم، وقالت لنفسها إنها سوف تنزل حالاً وتعرف مكان الصوت.

قاومت رغبتها وفكرت أن توقظ رأفت لتسأله عن نعيق الغراب، لكنها خافت أن ترتكب حماقة تُؤخذ عليها، خاصة أنهم ينتظرون أي هفوة، لكي يدّعوا أنها فقدت عقلها ويرفعوا عليها قضية الحجر.

كانت متأكدة من أنهم ينتظرون موتها حتى يبيعوا البيت، لكنها لن تسلم لأبنائها وأبناء أخيها، لن يتصروا عليها، لهفتهم على بيع ميراث جدهم سوف تُضيعهم. لا يفهمون الحياة، ويرون "أنني كبرت وخرّفت". يجب أن يبنوا البيت لا أن يبيعوه. كل واحد يريد شقة وسيارة ورصيدًا في البنك. يخلعون انفسهم من جذورهم، ولايدركون أن كل واحد منهم سوف يكون وحيدًا مثل عود جاف. لا يفهمون. عليهم أن يفكروا في بناء البيت، أو يبقوا فيه كما هو، على الأقل معًا.

(٤)

في الصباح لم تقدر على منع نفسها من استجواب رأفت عن نعيق

t.me/qurssan

الغراب، فقال متعجلاً: "ربما كان مزاحًا من الشباب الذين يقفون في الميدان طوال الليل". قالت في نفسها إنه رؤوف بها، هو الوحيد الذي لا تشعر بالرغبة في موتها تُطل من نظرته. يعمل مدرسًا في مدرسة الزراعة، ويقضي المساء في المقهى، وعندما يعود بعد منتصف الليل يتعشى ويقرأ الجرائد حتى الفجر. عَزِف عن الزواج، بسبب فتاة كانت تسافر معه إلى شبين في القطار أيام الكلية، تزوجت من رجل جاهز يعيش في الخليج، ولم يستطع أن ينساها أو يتزوج غيرها. هذه حجج. هي تعرف، هناك نوع من الناس لايريدون أن يعيشوا، رأفت منهم، يحرنون، لا يريدون أن يخوضوا في الأوحال، يرغبون أن يعودوا مثلما جاءوا بلا ذنوب.

لم تطالبه كثيرًا أن يتزوج بعد أن تخطى الأربعين، فقد كانت ترى أن النساء سبب خراب الحياة، يُثرن الطمع والشهوة لدى الرجال. هن سبب الكراهية ونفور الأخ من أخيه، وغضب الولد من أمه. في عقيدتها، الرجال يتحولون إلى خرق بالية في أيدي النساء. ترى ذلك بعناد امرأة متشبثة برأيها طول عمرها، لم يمنعها ضرب زوجها من تبديل رأيها. قالت له: "اضرب ... اضرب.. كمان يا أبو نشأت". فخورة بأنها استطاعت أن تقف في وجه ذلك الرجل الصعب الذي انجبت منه أربعة صبيان.

عصر الرجال انتهى؛ نادرًا ما تتحدث مع واحد منهم هذه الأيام ولا تشم خلف رأيه روائح نسائية، لم يعد هناك واحد مثل زوجها، الذي أوقف الحنطور، ذات يوم، وسط شارع البورصة وأمسك الكرباج من يد العربجي، وأمرها أن تنزل وترجع إلى بيت أبيها. لم يكن يهمه ما سيقولون عنه. أدار بيته من دماغه، و كان يكرر أمامها: "شورة المرة عورة.."

t.me/qurssan

ما تزال تحتفظ في الدولاب بالقفطان والطربوش. اعتادت أن ترتب الدولاب وتشم الثياب وتنظف الطربوش بالفرشاة. الآن تكفى نظرة إلى الطربوش حتى تستعيد طيف روائح قديمة وبضع صور ما تلبث أن تتلاشى وتتركها للحظات متوهمة أنه نزل إلى السوق ونسيَ الطربوش. في الفترة الأخيرة من حياته ارتكب حماقة أودت به؛ تزوج من امرأة شابة كانت زوجة تاجر توفى مبكرًا. قضى معها عامًا ثم طلقها. لم يستطع أن يجاريها، ولأنه لم يكن يخطئ فقد كانت كبوته نهائية. مرض بعدها ومات.

(٥)

في المساء صادفت أحمد ابن أخيها يفتح غرفة الجلوس التى جعل منها مكتبًا للمحاماة. سألته عن نعيق الغربان في الليل. قال إنه لم يسمع شيئًا، وإن حدث فما الغريب أن ينعق غراب في الليل.

قالت بحدتها المعتادة:

"يا جاهل الغربان لا تنعق في الليل".

ابتسم قائلاً:

"يا عمتي، لا أعرف الفرق بين الغراب والبومة، أنا محامي."

قالت وهى تتفحص وجهه:

"كيف يكون محاميًا، من لا يعرف الفرق بين الغراب والبومة؟"

t.me/qurssan

(٦)

جلست في فراشها. أنصتت بدقة لنبرات صوت الغراب، وشعرت بعيون غامضة تحدق فيها، ثم جاءت رعشة خاطفة، أعقبت سماعها صوتًا في الشقة، ربما كان صوت تكسر الثلج في فريزر الثلاجة. النعيق تردد مرة أخرى، فوضعت الخِرام على كتفيها وخرجت إلى الشرفة.

كان الشارع ساكنًا. بجوار كشك "أم أشرف" يقف مجموعة من الشباب. بجانب الرصيف تركن سيارات حديثة الطراز، تلمع تحت عمود النور أمام بوابة المركز الطبي. خيل إليها أن شجر الفيكس عريض الأوراق قد توحش وراحت أفرعه تسيطر على السور، ورغم ذلك لم يبدُ، في نظرها، أنه مكان الغراب، فالغربان تعيش على الشجر العالي في المناطق الخالية، شاطئ ترعة، طريق قديم مهجور. هذا تصورها الذي ظنته حقيقة. تأملت النور يلمع على سطح السيارات وشعرت بالحزن لأن مثل هذه الأفكار تطاردها، وأنها خائفة على هذا النحو.

ظلت تفتش هنا وهناك عن المكان الذي يمكن أن يصدر منه صوت الغراب، متخيلة أنه بطول التحديق في الأشياء سوف تعرف مكانه.

نعيق الغراب يخيفها خوفًا عميقًا. يقشعر جسدها، ثم يثير تنبيهًا مثل الذبذبة في منابت الشعر، وقرقرة في الأمعاء. يقول لها إنها ستموت قريبًا. وتأخذ الفكرة رصانة الحقائق، لأن الموت له علامات مثل الصبح والليل والعيد، ونعيق الغراب هو علامته، وبهذا ستصدق نبوءة عمرو ابن أخيها.

t.me/qurssan

(٧)

بدأ الأمر في ذلك اليوم المشؤوم، عندما دخل غرفة الصالون، مقاولاً يضع نظارة شمس سوداء في الليل. يحمل عربون البيت، ويوم تسلم البيت سيدفع باقي الملايين الستة. رفضت أن توقع عقد البيع بعدما اتفقوا معها ورتبوا كل شيء. غيرت رأيها في آخر لحظة. في غرفة الصالون في شقتها بعد أن غادر المقاول، حاول ثمانية رجال؛ أولادها الأربعة وأولاد أخيها الثلاثة وزوج بنت أخيها، أن يقنعوها، لكنها رفضت.

كاد أحمد أن يُشل:

"ألم تقولي إنك موافقة؟ سوف نصبح عيالاً في نظر الرجل."

أصرت:

"لن أبيع بيتي، أنا حرة."

لها الرُبع في البيت، وبدون موافقتها لايمكن أن يتصرف أولاد أخيها في نصيبهم. يومها انفعل عمرو وهدد بأنه لن يتركها تدمر حياته، وأنه سوف يضع لها السم. أسكته أحمد، قائلاً "بطل هبل واسكت". صمتوا جميعًا فقالت كأنها تعتذر عن تعنتها: "بكرة أموت واعملوا ما بدا لكم." كان عمرو لايزال منفعلاً فقال لها: "انت تموتي؟ بكرة تشوفي؟ أنا هموت قبلك."

خاصمت عمرو بسبب ما قاله في تلك الليلة، وعندما تراه واقفًا على باب محل الألبان بعد عودته من العمل في المدرسة الإعدادية، تعبر أمامه دون أن تنظر تجاهه، معاقبة إياه على وقاحته، لكنه يمازحها ويرد

t.me/qurssan

تحية لم تنطق بها.

من يومها وهي خائفة، متوجسة، تشعر بالخطر يقترب منها. حاول رأفت أن يخفف قسوتها على عمرو قائلاً إنه ابن أخيها الصغير، شاب متهور يريد أن يتزوج، وأنتِ عطلتِ كل شيء. ومع ذلك لم تسامح عمرو، وظلت تدير وجهها كلما تصادف أن قابلها على السلم.

كان يمكن أن يمر الأمر ولا يتحول ذلك اليوم إلى علامة شؤم، لكن عمرو مات بعد ذلك بشهور في محل الألبان إثر أزمة قلبية. وجدوه جالسًا على الكرسي البلاستيك الأبيض ويداه متدليتان بجانبه. كان الأمر صاعقًا، فقد شعرت بأن ما حدث يوم بيع البيت يشكل نبوءة، وأن عمرو مكشوف عنه الحجاب، واستنتجت من الحزن والدهشة والغضب ضدها بأن يومها قد اقترب.

(٨)

كانت تُعد كوب الحلبة قبل النوم. فكرت أن كل شيء، قد تغير من يوم أن قال عمرو إنه سيموت قبلها. تبدلت حياتها وتسللت مخاوفها إلى التفاصيل الصغيرة، ورغم أن من هددها بوضع السم قد مات غير أن وساوسها ظلت قائمة.

الطعام الخاص بها لا تمسه يد غريبة. كفت عن شرب الشاي في أي مكان خارج بيتها. في البيت تتأكد أن السكر والشاي لم يمسا. في

t.me/qurssan

النهاية وضعت قفلاً لخزانة صغيرة، تركت فيها البُن والحلبة والسكر والشاي، وأشياء أخرى لم تطمئن لتركها في الخارج. تعيش مع رافت وحدهما في الشقة وتثق فيه تمامًا، إلا أنها لا تضمن المؤامرات؛ أن يكون مع أحد أبنائها مفتاحًا للشقة، يدخل ويدس لها السم في السكر.

خضع الأكل لرقابة دقيقة من الغسيل والفحص، والوضع في مكان معلوم في الثلاجة محاطًا بعلامات سرية. أحيانًا ترهقها الوسوسة الزائدة، تقول لنفسها غاضبة: "ما تموتي وتروحي في خرارة." في لحظات الحزن والتعب تتأكد من غرابة الفكرة وتستبعد تمامًا أن يجرؤ أي منهم على التسلل بالسم ووضعه لها، لكن تلك العادات وجدت هوى في نفسها وازدادت رسوخًا، حتى إنها قبل النوم تأخذ وقتًا طويلاً في إعداد كوب الحلبة، بتدقيق غريب مستمتعة بأنها وحدها، لا يمكن لأحد أن يطرق الباب في هذا الوقت، ويمكنها أن تفحص كل شيء فحصًا دقيقًا، وتتأكد أن السم لم يتسلل اليوم، وأنها قد فازت بيوم آخر من الحياة.

اليوم ظبطت نفسها تفحص حبات الحلبة بدقة وتتأمل ببطء حشرة صغيرة، تتسلق الحبات المكرمشة، وتتعثر، استغربت نفسها، وهي تغسل الحلبة طويلاً حتى شعرت بها تلين في يدها. خافت من خاطر مباغت: لو رآها أحدهم الآن تدقق بهذا الشكل، وتبحث في التفاصيل لا بد أن يقول إنها مجنونة.

وضعت كنكة الحلبة على النار، ولم تتمكن من الوقوف، فقد فاجأها ألم غير محتمل في المفاصل. أطفأت البوتاجاز وأسرعت ترتمي

t.me/qurssan

على الكنبة في الصالة. ارتعش جسدها، فتركت الصالة ودخلت إلى فراشها، رغم أنها تعرف أنها لن تنام حتى تقوم بطقوس ما قبل النوم، من الاطمئنان على البيت، وصلاة العشاء وقراءة التسابيح.

غفت قليلاً وفتحت عينيها على صوت الباب. تعرفت على النفس الثقيل لـ رأفت ورائحة الدخان التي ترافقه. قامت من الفراش، وجلست في الصالة. تراقبه يتناول عشاءه صامتًا، يشاهد التليفزيون. قامت لتؤدي طقوس المساء.

حملت كوب الحلبة وعادت لتجلس على الكنبة.

وجدت نفسها تسأله إن كان قد لاحظ عليها أي شيء غريب هذه الأيام. قال وهو مندمج في متابعة الفيلم الأجنبي.

"أنت غريبة طول عمرك يا ماما."

انتبه إلى صمتها فقال:

"على فكرة، إنت أحسن من زمان."

نامت ممتنة بأن هذا اليوم، رغم أنه مليء بالعذاب، قد مُنحت في نهايته عبارة مطمئنة.

(٩)

بعد عدة أيام، عائدة في الليل من الصيدلية بعد قياس الضغط،

t.me/qurssan

خانها تماسكها، وسألت أحمد مرة أخرى عن النعيق الذي يتردد في الليل.

قال:

"يا عمتي أنت خائفة من الموت، عمرو مات قبلك، شكلنا كلنا هنموت قبلك".

قالت غاضبة:

"أسكت يا ولد. النعيق شؤم، وأنا خائفة عليكم."

طلعت إلى شقتها غاضبة من نفسها.

وقفت مستندة إلى سياج البلكونة، تفكر في النعيق وفي الموت، أعادت التفكير في كلام أحمد: "ما الذي ستفعله عندما تعرف مكان الغراب؟" فرضًا ذهبت إلى البلدية وأمرتهم بقطع شجر الفيكس بجانب سور المركز الطبي، يمكن للغراب أن يسكن سطوح العمارات العالية. قالت بصوت خفيض: "ماذا أفعل؟"

كانت تريد أن تتأكد أن الصوت حقيقي، خائفة أن يكون من بنات أفكارها، في تلك الحالة سوف يأخذه أحمد حجة عليها، ويدعي أنها فقدت عقلها ويساعده نشأت ابنها الكبير ويرفع قضية بالحجر عليها. لامت نفسها أنها تكلمت عن الغربان وقررت ألا تأتي على ذِكرها بعد ذلك مطلقًا، وتمنت أن يكون الأمر قد فات على أحمد ابن أخيها.

t.me/qurssan

أغلقت الشرفة ودخلت.

نامت تفكر أنها لابد أن تكون جاهزة حتي تُفشل لهم قضية الحجر، وقررت أنها في الغد سوف تتحدث مع رأفت أن يجس نبض أحمد، وهل ينوي أن يرفع قضية على عمته. مخاوفها تراكمت وتراءى لها ذلك الصباح عندما سيقودوها إلى بوكس الشرطة حتى يودعوها مستشفى المجانين.

استغرقت في النوم، فلم تشعر بعودة رأفت، واستيقظت بعد الفجر، وجلست شاردة مرهقة. كيف حدث هذا؟ كيف تحولت هذه الليلة إلى شبكة من المخاوف؟ لو بقيت لوحدها فترة طويلة سوف تُحدث نفسها كالمجانين، وسوف يتأكد أحمد أنها مجنونة. عليها أن تتصرف حتى لا تصاب بالجنون.

(١٠)

الشمس تنير سور المركز الطبي والكشك الأزرق أمام العمارة القديمة. الجو بارد والريح تثير الأتربة ورغم ذلك كان لابد أن تنزل لتشتري طلبات اليوم. اشترت البقدونس، والشبت لكي تعد المحشي، الذي يحبه رأفت، من فلاحات يجلسن على الناصية. في طريق عودتها فكرت أن تمر على جارتها أم الدكتور خالد، التي تسكن عند الناصية.

بعد السؤال عن الأحوال والحديث عن ذكريات أيام زمان، سنحت فرصة حتى تسأل أم خالد، إن كانت قد سمعت نعيق غراب في الليل.

t.me/qurssan

جاءها أول تأكيد، فقد سمعت صوتًا يشبهه منذ ليلتين، وهي في طريقها إلى الحمام، لكنها غير متأكدة من أنه صوت غراب. لكن الست عنايات حولت الشك إلى يقين واعتبرت كلام أم خالد دليلاً على أنها لا تخرف ولا في طريقها إلى الجنون. قالت أم خالد ربما يسكن الغراب حوش المدرسة الابتدائية خلف المركز الطبي، لكنها لا تؤكد الأمر لأنها تنام بعد العشاء؛ الأدوية تهدها.

صعدت السلم ببطء وفي يدها الحقيبة البلاستيك. حاولت أن تحبس تلاحق أنفاسها الذي يمنعها من الإنصات. فقد سمعت صوتًا يشبه صوت عمرو تماما. تملكها الرعب، وأنصتت وهي تحبس نفسها في صدرها. سمعت صوت باب شقة أحمد يُغلق. خاطبت نفسها غاضبة: "أحمد، ابن اخويا." وشعرت بأنها على وشك البكاء. رغبتها في البكاء فجَّرت عِنادها فقالت بعد أن فتحت باب الشقة ووضعت الخضار في المطبخ وسارت متوترة إلى فراشها: "لو شنقوني لن أسمح لهم ببيع البيت، لو أكلني الغراب لن أدعهم يهدمون بيت أبي".

(١١)

في الليل سألت رافت:

"لماذا تُصر على بيع البيت مثلهم؟"

قال:

"لماذا تصرين على أن تقفي في طريقهم وتلخبطي لهم حياتهم؟"

t.me/qurssan

شعره الغزيز الذي لا يمشطه، وجسده السمين البض، ونظرته الصريحة تمنح كلماته مصداقية.

" أنت تعرفينني. لا اريد شيئًا."

قالت غاضبة:

"لماذا لا تريد شيئًا؟"

"لا أعرف."

انتظرت أن يتكلم. تعرف عناده، ولطالما استغربته. ابن بطنها، أصغر أبنائها، تعرف أن به شيئًا توقف عن الحياة، لم تكن تريد أن يكون هكذا واقفًا على الحياد. لابد أن يأخذ موقفًا، أن يكون معها أو معهم، لا يهم.

انزاحت في المقعد واسندت ظهرها وقالت:

"سوف تخسر كل شيء."

قال:

"خسرت فعلاً."

نظرت إليه متفحصة.

"تعديت الأربعين، مرتبي يكفيني، ولا أريد أكثر من ذلك."

"سبحان الله، كأنك جدك وقد عدت إلى الحياة."

انتظرت منه أن يرد لكنه واصل مضغ الطعام.

أكلمت كلامها:

t.me/qurssan

"هل تعرف قصة البيت الذي نسكنه؟"

واصل مشاهدة التليفزيون.

حكت مرة أخرى الحكاية التي سمعوها كثيرًا:

"قال جدك لإخوته: لا أريد شيئًا، وترك بيت العائلة، في درب الإبشيهي، وجاء هنا، بني بيتًا من الطين، في وسط قطعة أرض بقيت من ميراث أمه، وعاش فيه متعبدًا، لم يكن في الحتة غير بيوت قليلة لأكابر البلد، لم تكن البلد قد تمددت على هذا النحو."

استمرت في تأملاتها:

"لا يوجد مخلوق لا يريد شيئًا. أنت لا تعرف ماذا تريد."

نظرت إلى السقف، وشعرت بالبرد في عظامها.

"جدك ترك هذا البيت الذي تتنازعون عليه، أما أنت فماذا ستترك؟"

"تعلمت الدرس. لن أترك شيئًا حتى لا يتنازع أحد من بعدي."

برقت عيناه. خيل إليها أنها رأت لمحة من الكراهية تحت البشرة البيضاء والسمنة والشعر الكثيف، وتساءلت للحظة هل يريد لي الموت مثلهم؟

شعرت بالحزن من أجله، وخافت من شيء مجهول في موقفه. هذا الحياد البارد. حاولت أن تستفزه وسألته مرة أخرى عن الزواج وهل فيه عيب لا يجعله صالحًا للنساء.

ضحك.

t.me/qurssan

"عُدتِ لموضوعك القديم."

صمت فجأة وعاد ليقول بحزن:

"خلاص، القطر فاتني."

قالت بحسم:

"الرجال لا يفوتهم القطر أبدًا."

"لكنه فاتني."

قالت لنفسها: "لا فائدة."

(١٢)

نزلت السلم ببطء، قبل أن يغلق أحمد مكتبه، ودخلت متجهمة، مهمومة وجلست على أول مقعد قابلها بجانب الباب. سألته عن الشباب الذين يقفون في الميدان وهل يعرفهم، وكيف يمكن أن نوقفهم عند حدهم. أخبرها بأن الشوارع ممتلئة بهم، لم يعد هناك عمل، والبلد مقفولة، ومثلهم في كل مكان.

قالت:

"هؤلاء لا يحتاجون عملاً، إنهم يملكون سيارات حديثة."

ثم سألت مندهشة:

"من أين يحصلون عليها؟"

قال ساخرًا:

t.me/qurssan

"يوزعونها على بطاقة التموين."

قالت بجدية:

"صحيح قل لي. أنت محامي وتعرف بطن البلد، من أين يجيئون بهذه النقود؟"

اضطر أحمد أن يتحدث بجدية:

"بعضهم عاش في الخليج فترة طويلة، بعضهم تجار أو أصحاب أعمال، وربما تجار مخدرات وحرامية المال العام."

نظرت في وجهه شاردة للحظات ثم قالت:

"تعالى هنا، أنت تقول كلام جرائد، أكيد فيهم ناس طيبون مثل بقية خلق الله."

تجهم وجهها، فاستعاد المرح وسأل:

"عرفت مكان الغراب؟"

توقفت ذاهلة، كأنه نَكأ جُرحها:

"نفسي أعرف.."

"يمكن غراب على شجر الكافور، في حوش المدرسة.."

"أنت جاهل، الغربان لا تنعق في الليل."

قال مازحًا:

"نفسي أعرف من أين جئت بهذة المعلومة؟"

t.me/qurssan

(١٣)

ليلة راس السنة. في العاشرة، بعد نشرة الأخبار، تركت عشاء رأفت في المطبخ. ثبتت مؤشر الراديو على محطة القرآن ودخلت تحت الأغطية. صحت على صوت احتكاك فرامل بالأرض، كأنه صرخة فزع. لم يكن رأفت قد عاد من الخارج. خرجت إلى الشرفة متدثرة بملابس ثقيلة. السيارات تسير بسرعة وقبل أن تقترب من صينية الميدان تنحرف وتحتك بالأرض وتدور حول محورها خفيفة كلعب الأطفال.

اندهشت من أن الناس في الشرفات يشاهدون العرض ولم يقل أحد لهؤلاء الأولاد أن يختشوا على دمهم ويذهبوا، يلعبوا ألعابهم بعيدًا. لحظة من اللحظات التي تُمسك بها دهشة تجعلها غير قادرة على التمييز بين الحلم والحقيقة. كادت أن تصدق أنها تحلم لولا البرد والوجع في المفاصل. كان ما تشاهده أعجوبة. ألا يمكن أن تنفلت عجلة القيادة من يد أحدهم فيصطدم بالجدار، أو في شجر الطريق، ويموت في لحظة؟ لماذا يستمر هذا الجنون دون أن يصدر صوت لإيقافه؟، بكل تأكيد هذا حلم، لأننا في الأحلام نكون مشاهدين؛ تحدث لنا الأحداث ولا نستطيع أن نوقفها أو نتدخل في مسارها.

لولا عنادها الفطري لصدقت أنها في حُلم. نظرت حولها ولما رأت أن أحدًا لايوقف هذا العبث، قررت أن توقفه هي، فصاحت في الشباب:

"انت يا ولد انت وهو، انت يا ولد...."

t.me/qurssan

كان صوتها عاليًا، لكن أحدًا من الشباب لم يتطلع تجاهها. كانوا مشغولين بمتابعة السيارات المصفوفة في الميدان، وبالترتيب تخرج واحدة واحدة، لكي تصنع هذه الدوائر. ثم تعود إلى مكانها. صاحت مرة أخرى:

"انت ياولد ..... انت يا ولد...انت وهو، انت يا ولد."

رنّ صوتها في مكان مجوف معزول. خافت، فما قامت به لكي تنفي الحلم بدا أنه يمكن أن يؤكده. دخلت إلى الصالة ترتجف من البرد، متعبة، غير قادرة على تحمل الأصوات الصارخة لإطارات السيارات حتى سمعت سرينة سيارة الشرطة.

(١٤)

في الصباح قابلت أحمد نازلاً إلى المحكمة قالت له مُشاكسة حتى تؤكد لنفسها أنها لم تكن تحلم:

"لازم تتصرف وتوقف الشباب عن عمل دوشة. فيه ناس ساكنة هنا."

وأكملت:

"يعني محامي على الفاضي.."

قال مازحًا:

" أنا لو مكانهم أعيش مثلهم."

t.me/qurssan

وجدت نفسها مضطرة أن تسأل السؤال المباشر لتنفي فكرة الحلم:

"ألم تزعجك أصوات السيارات في الليل؟"

"عدت من الإسكندرية في الفجر."

انتظرت حتى رجع رأفت من الشغل وسألته:

"لابد أن تجدوا حلاً، تُوقُفوا به الشباب عن إزعاج الناس بالليل."

قال:

"من يقدر عليهم؟ أولاد ناس كبار في البلد."

سألته بدهشة عما يعني بكلمة:

"ناس كبار"

"يعني أهاليهم من كبار البلد."

بدت الطريقة التي يتحدث بها رأفت غريبة: "ناس كبار؟" كادت تقول: "بشوات يعني؟" لكنها توقفت خائفة أن تتورط في حوار يكشف مخاوفها.

في الليل دخلت الفراش، واهنة، ضعيفة، متسامحة مع الفكرة المرعبة التي تراودها كلما ذهبت إلى الفراش أنها لن تجد نفسها هنا في الصباح. اليوم قرأت الشهادتين باستسلام وبدون ذلك الحزن الذي يرافق قراءة الشهادة.

t.me/qurssan

(١٥)

بعد عدة أيام، انقطعت الكهرباء. تَغطىَ الميدان بصمتٍ واسعٍ. ليلة شتوية أخرى. سمعت لأول مرة نعيق غراب واضحًا وقريبًا جدًا، ثم تلى ذلك فترة من الصمت، وبدأ النعيق مرة أخرى، وتلاه نعيق آخر، كان تقليدًا. الصوت المُقلد هو الذي كشف لها أنه صوت بشرى. استطاعت أن ترى أشباح الشباب يتجولون في الميدان، تلمع جمرات سجائرهم. هناك شابٌ يقف في أعلى نقطة في صينية الميدان ويبدأ في إطلاق صوت الغراب، كأنما انقطاع الكهرباء مكّنها من التركيز وفهم مايحدث، خاصة أن الشباب رددوا -كجوقة- النعيق في وقت واحد.

كانت الأصوات تتردد في الميدان، تأتي من أمام الجمعية التعاونية ومن عند سور المدرسة، ومن ناصية المركز الطبي، ومن نافذة كشك أم اشرف حيث يتراقص ضوء شمعة.

(١٦)

في العاشرة صباحًا، وقفت أمام باب البيت بعزم، مرتدية التايير القديم والإيشارب مربوط تحت ذقنها، تتعلق في ذراعها الحقيبة الجلد الطبيعي، كأن قطعة من الماضي عادت إلى الحياة، لم يتبق غير أن توقف حنطورًا لكي تركبه.

تصادف أن كان أحمد نازلاً إلى المحكمة سألها:

t.me/qurssan

"إلى أين ياعمتي؟"

"اخرس، سأوقف الجنون."

وأكملت:

"لا يصح أن يكون في البلد رجال كبار ويحصل هذا العبث."

نزلت من التاكسي أمام مديرية الأمن. صعدت سلالم واسعة عريضة انعكس عليها ضوء الشمس لامعًا، متعبة قليلاً من ضيق الحذاء وتشقق جلده، ومن الارتفاع غير المتناهي للسلالم. تقديرًا للهيبة التي تحيط بعجوز نازلة من صورة فوتوغرافية قديمة، تركوها تمر دون سؤال، إلى أن وقفت حائرة أمام أبواب بلا نهاية. اقترب منها شاب يرتدي ملابس مدنية سائلاً عما تريد. قالت بحزم وهي تتفحص وجهه:

"أريد أن أقابل جناب مدير الأمن."

لاحت بسمة على وجه الشاب، ونادى عسكري أمام مكتب في طرقة معتمة:

"خذها لـ ناصر باشا"

دخلت غرفة واسعة بها مكتب عريض، مفروش بالجوخ الأخضر، قام رجل طويل القامة أصلع، له شارب كثيف، لاستقبالها وأجلسها باحترام وسألها عن شكواها. قالت بحسم لم يفارقه حس بالتبجيل.

"جنابك السيد مدير الأمن؟"

ابتسم الرجل:

t.me/qurssan

"تحت أمرك يافندم."

حكت باستفاضة عما يحدث كل ليلة في ميدان شارع بطرس، وعن ما حدث ليلة رأس السنة، والإزعاج الذي يسببه الأولاد للناس، وعن سهرهم والكشك المفتوح ليل نهار والذي يُشاع أنه يَبيع المخدرات، لكنها في النهاية ربما بتأثير الحكاية المترابطة في ذهنها عُرجت على نعيق الغربان وما حدث عندما انقطعت الكهرباء، وكيف أنها لازالت غير متأكدة من أنهم من يطلقون النعيق، رغم أنها رأتهم يقلدون الغربان. تحمست وقالت بأنها لا تقدر على العيش، وإنهم يقولون إن هؤلاء الأولاد أولاد ناس كبار، وقد يعني هذا أن المديرية هنا ربما تعجز عن التصرف، لكنها مستعدة أن تسافر إلى مصر وتقابل سعادة الوزير شخصيًا، وتشكو له، فلا يمكن أن تُترك البلاد لألعاب العيال.

استمع الضابط إلى الحكاية بصبر ونظر إليها بثبات يوحي بأنه يصدق حكايتها، لكنها فجأة شعرت بالخوف وبأنها استرسلت أكثر مما ينبغي، وربما اختلت قليلاً، وأن عقلها بلا ريب أصبح خفيفًا، وخطر لها أن هذا الكلام يمكن أن يؤخذ دليلاً على اختلالها، وأن أحمد يمكن أن يرفع قضية حَجر عليها، لكن ابتسامة الرجل وتطميناته، أعادت إليها الثقة، خاصة أنهُ سَارَ معها حتى الباب مودعًا.

لحظاتٌ قصيرةٌ من الرضا بأنها قامت بواجبها، تلاشت مع هبوطها السلالم الواسعة ورؤيتها لسور النادي الرياضي، وشجر السياج القصير المشذب ينعكس عليه ضوء الشمس، وجاء الخوف مما تحدثت به. وقفت

t.me/qurssan

على الرصيف لا يمكنها السير: إن ما قالته دليل جنونها.

نظرت بشرود إلى الكراسي الملقاة حول المناضد في الشمس داخل حديقة النادي، حتى همس لها شخص: "أي خدمة يا سِتي؟" فبدأت تتحرك ببطء متحاشية أن تنظر مرة أخرى تجاه الكراسي والمناضد الخالية، وتشبثت بها فكرة أن عقلها أصبح يتوه، وأنها يمكن أن تفقد السيطرة وتفضح نفسها بالكلام.

تبدد حسها بالفخر تحت ثقل خوفها من ذلك الشرود الذي جعلها غير قادرة على تحديد مكانها ولا اتجاهها. وقفت حزينة أمام مبنى المحافظة تنتظر سيارة أجرة تقلها إلى البيت، فقد بدا زحام الشوارع وسيارات الميكروباص الطائرة، والعدد الهائل من السيارات، متاهةً لن تتمكن من عبورها. فكرت أن قضية الحجْر أصبحت الآن كاملة، وراودها حزن شخص وحيد لا سند له. توالت على ذهنها حلول، مثل أن تستشير محاميًا، أو أن تذهب إلى إخوة زوجها التجار تستنجد بهم، أو تعود إلى مدير الأمن وتحكي له خوفها، حتى يكون "عنده علم مسبق" حين تقع الكارثة.

(١٧)

بعد عدة أيام تبددت مخاوفها عندما رأت عمال البلدية يَرفعونَ كُشك أم أشرف من صدر الميدان وينقلونهُ على رصيف المركز الطبي.

t.me/qurssan

كانت تقف في البلكونة. نست وساوسها وشعرت بالنصر. وزارت أحمد في المساء في مكتبه معتبرة انتقال الكُشك إلى الجهةِ الأخرى انتصارًا لمشوارها إلى مديرية الأمن.

قالت بفخرٍ:

"قلت لك، قابلت السيد مدير الأمن بنفسه، شُفت؟ مشواري جاء بفائدة."

حكت له تفاصيل الزيارة، والاستقبال المعتبر. قالت ذلك بمتعة من تحاول أن تَصُدَ هُجومًا؛ تؤمّن نفسها ضد أي فكرة شريرة قد تَعنُ له. تُعرّفه أنها مازالت قادرة وتستطيع أن تتصدى لأي هجوم. كانت حكايتها وسيلتها لتبلغه أنها "عظمة جامدة". ساعدها الفخر بأنها وصلت إلى مسؤول كبير في البلد وأمّنها قليلاً من المخاوف التي يثيرها صمت أحمد ونظرته العميقة الشاردة، وخططه الخفية.

حكت الحكاية مرة أخرى لـ رافت بالليل، وزارت أم خالد وحكت بصيغ مختلفة خَبرَ لقائِها مع مدير الأمن. في غمرةِ حكاياتها نَست مخاوفها. كانت مستغرقة، تتحدث بعصبية، وتنسى تفاصيل وتعود لتُكلمها، سعيدةً بقدرتها على التذكر، التي مكنتها من اكتشاف تفاصيل لم تأخذ بالها منها أثناء الحدث، وتكتشف كل يوم قدرًا من السحر في مغامرتها.

t.me/qurssan

(١٨)

بدأت مواسير الصرف في المنور تُسرب وتثير رائحةً نتنةً صعبة التحمل. نَزلت في التاسعة مساءً لتُخبر أحمد أن يأتي بسباكٍ لتصليحها، وبعد أن تبادلا الأخبار، سألها:

"ألن توافقي يا عمتي على بيع البيت؟"

أفاقت من حلمها ورأت الموت يطلُ من عينيه. مشاكل الميدان، وصخب الشباب أهون. قالت بصوت خفيض:

"لماذا تُعكر مزاجي؟"

صَعدت إلى شقتها. فتحت الباب وأسرعت لترقد في فراشها، وفي ذهنها أنها سوف تتمدد قليلاً ثم تقوم لصلاة العشاء. كلام أحمد ذكرها بما يرقد طوال الوقت تحت سطح الحياة: "الطمع والشهوة". كلهم طماعون، أولادي أكثر طمعًا، فما الذي انتظره من أولاد أخي. مخاوفها التي استراحت قليلاً عادت بكامل عافيتها. أصبحت تلك الليلة أكثر الليالي صعوبة، وتشهّدَت أكثر من مرة وظلت يقظة تكاد ترى ملاك الموت يطوف حول البيت.

t.me/qurssan

(١٩)

سَمعت نعيقَ الغُراب يتردّدُ في الليل. صَحت من حلمها. أنقذها الصوت لأنها سمعت البيت يُطقطق على وشك التهدم. المطر مثل الوشيش. سمعت القطرات تنزل من السقف في الصالة ويتردد صوتها على المشمع فوق سطح البوفيه.

جلست في فراشها. ماذا حدث لها؟ هل يمكن أن يكون هناك غراب في الليل والدنيا تمطر؟ هذه المرة الصوت في خيالي. لابد أنه في خيالي. أبعدت عن ذهنها فكرة أن تكون مجنونة، تسمع وحدها تلك الأصوات، وتدثرت بالحِرام الصوف وقامت.

قطرات المطر تتساقط من زاوية الصالة ومن طرقة الحمام. فتحت باب غرفة رأفت وطلبت منه أن يصعد إلى السطح ويدفع ماء المطر إلى البلاعة ويُسلك المزاريب، قال وهو نائم:

"الصُبح."

قالت بحدة:

"إن لم تقم حالاً سوف أصعد بنفسي."

لم يتحرك.

توجهت إلى الحمام وحملت المساحة وفتحت باب الشقة. خافت من صوت المطر. واصلت الصعود مفكرة أنهم يمكن أن يتركوا ماء المطر يهدم البيت. الماء فوق السطح بركة واسعة. المطر يُثير وشيشًا يتمدد

t.me/qurssan

حولها، يمكن أن يهدم البيت فعلاً وأن يُوقفَ الحياة. في طفولتها أمطرت الدنيا ثلاثة أيام متواصلة، وعندما طلعت الشمس بعد ذلك، كانت الجدارن مُشبعة بالماء والخشب ذائب، وقُبة جامع السيد البدوي زاهية لامعة. ذلك المطر القديم كان مخيفًا، لكنه خوف الأطفال المحميين بالأهل، أما الآن فالخوف مُشبع بروح عدوانية. قالت لنفسها وهي تدفع الماء باتجاه المِزراب لن أدعهم يقولون إنني مجنونة. رأت رأفت يقف على بسطة السلم يغطي رأسه بكيس من البلاستيك، ويمسك مسَّاحة أخرى، قال: "انزلي يا ماما." لكنها ظلت واقفة حتى ينتهي من جَرفِ الماء، خائفة أن يتركه ينشع ويُذيب البيت.

كانت تجلس على الكنبة عندما خلع رأفت كيس البلاستيك من فوق رأسه وأدخل المسَّاحة إلى الحمام، وعاد يجلس على كرسي من كراسي السفرة كأنه سوف يتناول طعامه، وبوجهه طيف من الغضب، وبدون مناسبة قال:

"تعرفي يا ماما؟ إنت عاملة مثل مدير مدرستنا، قبل ما يطلع معاش. كان يمر في المدرسة، يُتَمم على الفصول، ويقف في طابور الصباح ويزور المشاتل، ويراقب بنفسه كل شيء. كنا مندهشين ماذا يريد هذا الرجل، لم يكن قد بقي له غير ثلاثة أسابيع على المعاش. كلما اقترب يوم الخروج إلى المعاش، يزداد تشددًا في تطبيق اللوائح، يشطب على من يتأخر خمس دقائق، كأنه يريد أن يعيش الوظيفة من جديد. كنا نقول ماذا يريد؟ هل يريد أن يأخذ الوظيفة معه إلى البيت؟"

t.me/qurssan

نظرت إليه مستفهمة خائفة، لكنه قال بغضب وهو يتجه إلى غرفته:

"عندي شغل الصُبح."

جلست وحدها في الصالة تفكر في حكاية رأفت، وشعرت بالحزن. رأفت مثلهم يريدها أن تموت. لماذا حكى هذه الحكاية. قامت لتتوضأ وتصلي فلم تعد قادرة على تحمل الخوف.

ظلت راقدة في الفراش تراقب صوت المطر حتى توقف. سمعت نعيق الغراب، أيقنت أن لا أحد من الشباب في الميدان. في يوم ممطر كهذا لا يمكن أن يبقى أحد في الشارع. لم تقدر على فتح الشرفة لتتأكد من ذلك. مفاصلها ترتعش، فحكاية رأفت أكثر حزنًا من أي شيء سمعته في الفترة الأخيرة. تأكدت أن الصوت الذي سمعته تردد في ذهنها، وبحزن فكرت أن الموت يشمشم فيها كأنه يريد أن يتأكد من أنها فريسته، ومرة أخرى استفزتها المخاوف، فتشبثت بقوتها القديمة وقالت:

"لن أبيع البيت."

t.me/qurssan

الفهـرس

الصفحة

قصة الفجر ٥

لن أتذكرك أبدًا ١٧

زينب فخر الدين ٣٣

الوطـن ٦٥

رياح الخماسين ٨٩

حديث مريم ١١١

مخاوف نهاية العمر ١٣٣

t.me/qurssan

يقدم لنا عادل عصمت في "مخاوف نهاية العمر"، عالماً شديد الخصوصية، عالم المدن الصغيرة الفريد، والبشر في هذه الأماكن المتأرجحة بين الريف والمدينة. ينصت عادل عصمت بحب وفهم لأرواحهم المنهكة في عبورهم تلك الشوارع والغيطان والبيوت، إلى طموحاتهم الصغيرة وأحلامهم البسيطة، وكذلك نزواتهم وخيباتهم وأطماعهم.

فى "مخاوف نهاية العمر" -كعادته- يملك الكاتب حسا عاليا بشخوصه، حسا رحيما، جعل من لغته تهويدات شفافة لبني الإنسان وهم يخوضون معاركهم الصغيرة أو الكبيرة مع الحياة، إذ يمتلك نبرة قص فريدة، شكلها من كلمات رؤوفة ،حانية، سلسة وعميقة فى آن واحد، تكشف عن الهشاشة فى ادعاء القوة، وعن الأسي فى لحظات الفرح، وعن الإنساني المشترك بيننا جميعا، دون انفعال زائد أو استعراض لغوي متحذلق، وبسلاسة مقصودة يصاحب عادل عصمت شخصياته ويرسم ملامح عالمه الخاص.

نصاحب القاص المغترب والفتى الباحث عن وطن والرجل العائد من حرب الخليج والفتاة التى غاصت فى النيل والسيدة التى تخشى نعيق الغراب وغيرهم من الأشخاص، ونكتشف شيئا فشيئا أن قصص عادل عصمت شأنها شأن رواياته قادرة على إدهاشنا بما هو بسيط وإنساني في الأساس.

عادل عصمت، روائي مصري. صدرت له العديد من الأعمال الروائية، الوصايا،حكايات يوسف تادرس، صوت الغراب، حالات ريم،أيام النوافذ الزرقاء، حياة مستقرة، الرجل العاري وهاجس موت. كما صدر له الكتاب القصصي قصاصات وكتاب ناس وأماكن. حصل على جائزة الدولة التشجيعية وجائزة نجيب محفوظ، كما وصلت رواية الوصايا إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية IPAF في ٢٠١٩. ترجمت بعض من أعماله إلى اللغة الإنجليزية والصربية والإسبانية والصينية.

t.me/qurssan